

الفصلُ الأوّل

[خواطر]

الأمَلُ

تُقْبَلُ الدُّنْيَا عَلَى بَعْضِ أَهْلِهَا بِفَرَحِهَا؛ مُتَرَعَّةً إِيَّاهُمْ كُؤُوسًا دِهَاقًا،
وَتُدْبِرُ عَنِ الْآخَرِينَ؛ مُجَرَّعَةً إِيَّاهُمْ الْحَنْظَلُ دَفَاقًا... فَيَبْقَى الَّذِي حَظِيَ
بِفَرَحِهَا آمِلًا أَنْ تَظَلَّ نَاشِرَةً جَنَاحَ السُّرُورِ فَوْقَ رَأْسِهِ، وَمُظَلَّلَةً إِيَّاهُ
بِغَدَقِ النَّعِيمِ؛ كَيْ يَحْظِيَ بِأَطْيَابِ الْعَيْشِ؛ وَيُسْبِعَ رَغَبَاتِ الطَّيْشِ؛
وَيَرْفُلَ بِنَعِيمِهَا حَتَّى يُحْمَلَ فِي النَّعْشِ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ سَيَشْفَى، وَتَبْدَأُ أَفْكَارُهُ
بِالنَّبْشِ، وَيَسُوخُ فِي أَرْجَاءِ الْمَعْمُورَةِ بَاحِثًا عَنْ هَنَاءَتِهِ وَسَعَادَتِهِ
بِالْمَعُولِ وَالرَّفْشِ... وَيَبْقَى قَابِضًا عَلَى أَمَلِهِ بِيَدٍ، وَعَلَى سَعَادَتِهِ
بِالْأُخْرَى... وَيَحْيَا حَيَاتَيْنِ، تَتَشَبَّحُ إِحْدَاهُمَا بِوِشَاحِ جَمَالِ الثَّانِيَةِ؛ فِي
حِينَ يُقَوِّي أَمَلُهُ مِنْ إِشْعَاعِ مَصَابِيحِ النُّورِ الَّتِي تَشِعُّ، وَتُضِيءُ لَهُ
حَيَاتُهُ .

أَمَّا مَنْ جَرَّعَتْهُ مِنْ كُؤُوسِ مُرِّهَا، فَيَأْمَلُ أَنْ يَرْتَشِفَ لَاحِقًا مِنْ حُلُوِّ
شَهْدِهَا، وَيَبْقَى مُحَوَّمًا حَوْلَ نَحْلِ أَمَلِهِ؛ كَيْ يَحْظِيَ بِعَسَلِهِ يَوْمًا مَا.
وَلَا يُمْكِنُهُ الْعَيْشُ مُتَحَمِّلًا لَسَعَاتِ دَبَابِيرِ الدَّهْرِ، وَلَا لَطَى مَشَاعِرِ

القَهْر، لو لم يَطْمَع بِحَلَاوَةِ الشَّهْد... وَيَكُونُ أَمْلُهُ الْعِطْرَ الَّذِي يَسْتَنْشِقُهُ،
وَيُنْعِشُهُ كُلَّمَا هَبَّتْ رَائِحَةُ هُمُومِهِ بِزَخْمِهَا الْمُكَدِّرِ صَفْوُ أَجْوَاء حَيَاتِهِ ؛
مُنْتَظِرًا مَوْعِدَ مَا سَيَعْتَصِرُ مِنَ الْخَلَايا لِيَنْذَوِقَهُ ...

الْأَمَلُ حَيَاةٌ غَيْرُ الْحَيَاةِ ... حَيَاةٌ مِنْ نَسْجِ الْخِيَالِ... نَنْسِجُهَا وَنَتَدَفَّأُ
بِصُوفِهَا هَرَبًا مِنْ صَفِيعِ حَيَاتِنَا الْوَاقِعِيَّةِ، أَوْ حِفَظًا عَلَى حَرَارَةِ دِفْئِهَا،
لِلَّذِينَ أَنْعَمَتْ عَلَيْهِم بِالْدَّفْعِ!.

هُوَ الْجِسْمُ الْأَثِيرِيُّ الَّذِي يُرَافِقُ أَفْكَارَنَا وَأَجْسَادَنَا أَيْنَمَا حَلَلْنَا؛ لِيُعِينَنَا
عَلَى التَّقَبُّلِ وَالتَّحَمُّلِ لِكُلِّ مَا يُوَاجِهُنَا، مِمَّا لَا نَرْضَاهُ، أَوْ لَا نَسْتَسِيغُهُ
فِي مِشْوَارِنَا الْحَيَاتِيِّ؛ لِيُصْبِحَ الْمُسَانِدَ وَالْمُحَافِظَ عَلَى مَا يُعْجِبُنَا؛ كَيْ
نَحِيطَهُ بِجِدَارِ الدَّيْمُومَةِ؛ خَوْفًا مِنْ فَقْدِهِ ، وَإِكْمَالِ حَيَاتِنَا مُنَحْصَرِينَ
تَائِهِينَ!.

هُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي نَبْتَاعُهُ عِنْدَمَا تَسْبِقُ لَامُ الْكَلِمَةِ مِيمَهَا؛ كَيْ نُهْدِيَ مِنْ
رَوْعٍ وَوَجَعٍ مَا نَشْكُو ؛ وَنَتَجَاوَزَ الْمِحْنَةَ الَّتِي قَدْ تَقَعَدْنَا عَنْ الْكَثِيرِ مِمَّا
يَهْمُنَا...

هُوَ التَّمَرُّدُ الَّذِي يَشْهَرُ السَّلَاحَ فِي وَجْهِ الْبَطْشِ وَالظُّلْمِ الَّذِي يَرْزَحُ
تَحْتَهُ الْمَظْلُومُونَ .

إِنَّهُ الْفَتِيلُ الَّذِي يُشْعَلُ الشَّرَارَةُ الْأُولَى، وَتَوْقَدُ مِنْ حُرُوفِهِ شُعْلَةٌ
الْإِسْتِمْرَارِ حَتَّى تَحْقِيقِ الْإِنْتِصَارِ...

هُوَ خِيوطُ النُّورِ الْمُضِيئَةِ لِكَهْفِ النَّفْسِ الَّتِي خَبَأَ نُورُهَا... يَهْدِيهَا
بَعْدَ أَنْ ضَلَّتْ الطَّرِيقَ؛ لِكَثْرَةِ مَا نَعَثَرَتْ بِهِ مِنْ حَصَى النِّيَّةِ وَالْغَوَايَةِ،
وَرَكَنْتْ فِي زَوَايا الإِحْبَاطِ وَالرَّتَابَةِ؛ تَنْدُبُ حَظَّهَا بِالْمَوَاوِيلِ وَالْعَتَابَا...
هُوَ الْمَاءُ الَّذِي يَرُوي نَصَحَرَ الْعَاطِفَةِ بَعْدَ طَوْلِ جَفَافٍ، فَيُعِيدُ لَهَا
طُمُوحَهَا؛ لِتَتَنَعَّشَ وَتُورِقَ وَتُثْمَرَ وَتَتَغَنَّى بِخُضْرَةِ الْوَاحَةِ، الَّتِي تَتَرَبَّعُ
تَحْتَ وَارِفِ ظِلِّهَا، وَتَقْطِفَ مِنْ ثَمَارِ نَخْلِهَا رُطْبَ الْوِصَالِ، وَتَصْنَعَ
مِنْ جَرِيدِهَا تَاجَ تَحْقِيقِ الْأُمْنِيَّاتِ وَتَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ...

هُوَ الطَّاقَةُ الَّتِي نَسَحْنُ بِهَا بَطَّارِيَةَ الاسْتِمْرَارِ فِي الْحَيَاةِ ، وَحُبِّهَا؛ رُغْمَ
إِدْرَاكِنا أَنَّنا نَسِيرُ فِي طَرِيقِ مُؤَدٍّ إِلَى الْفَنَاءِ، تَارِكِينَ كُلَّ مَا جَمَعْنَاهُ
وَاحْتَضَنَاهُ مِنْ مَادِيَّةِ هَذِهِ الْفَانِيَّةِ، وَجَاهِدُنَا مِنْ أَجْلِ الْحُصُولِ عَلَيْهِ.
وَلَوْلَاهُ، لَكُنَّا نَقْعُدُ فِي دُرُوبِ الْحَسْرَةِ نَادِبِينَ، وَلِأَوَاخِرِ الْأَيَّامِ مُنْتَظِرِينَ،
بِأَجْسَادٍ كَلِيلَةٍ لَا تُصْدِرُ إِلَّا الْأَنِينَ...

هُوَ الَّذِي يُجْلِسُنَا عَلَى مَفَارِقِ الْإِنْتِظَارِ؛ لِنَمُرَّ أَحْلَامُنَا؛ وَنُمْسِكَ بِأَطْرَافِ
خِيوطِهَا... قَابِضِينَ عَلَى جَمْرِ الصَّبْرِ بِيَمِينِنَا؛ وَبَاسِطِينَ شِمَالِنَا
مُتْلَهِّقِينَ لِبَرْدٍ وَسَلَامٍ تَحْقِيقِهَا...

وَقَدْ يَطُولُ الْإِنْتِظَارُ سَنَوَاتٍ، فَلَا نَمَلُّ، وَنَظْلُ نَغْزُلُ نَغْزُلُ الْأَمَلِ
رِدَاءً بِالْأَلْوَانِ الْأُمْنِيَّاتِ. وَلَكِنْ، قَدْ نُدْتُرُ بِهِ خَيَّابَتِنَا، وَنُلْقِي بِهِ بَعِيدًا...
إِلَّا أَنَّنَا نَعَاوِدُ الْغَزْلَ وَلَا نَكِلُ...

هُوَ الَّذِي يَنْزِعُ وَتَدَ يَاءِ الْيَأْسِ مِنْ جُلُودِ الشُّؤْمِ، وَيُطْلِقُ يَمَامَةَ التَّفَاوُلِ
مُحَلَّقَةً فِي الْأَعَالِي، وَيَكْسِرُ شُمُوحَ هَمْزِيَةِ الْمُشْرَبَةِ بِعَصَا الْإِحْبَاطِ،
وَيَسْتَبْدِلُ بِهَا هَمْزَةَ أَنْسٍ تَبْعَتْ عَلَى الشُّرُورِ، وَتَدْفِنُ الشُّرُورَ، وَيَكْسِرُ
سِوَارَ سِينِهِ؛ لِيَسْتَبْدِلَ بِهَا سِينَ سُنْدُسِ الْأَفْكَارِ الَّتِي تَبْسُطُ حَرِيرَهَا؛
لِتَسْتَقْبِلَ مَا سَتَّاتِي بِهِ الْأَيَّامُ، بِفَرَحٍ وَاطْمِئْنَانٍ ...
هُوَ... هُوَ... هُوَ...

تُعطينا ونُعطيك

أيتها المعطاة التي تجود علينا بكلّ ما نطلب ونريد... فنطمع ونصرخ : هل من مزيد؟! ... تلبّين الطّلب ولا تتضايقين ... نتلقّف ما تعطين، ونمضي مهرولين بأفكارنا صوب مخطّط لكسب جديد ... ناسين أن نحني هاماتنا لك يا سيّدة العطاء، التي لا تأبه لجشع الجشعين ، وحسد الحاسدين، وزهد الزّاهدين ...

عطاؤك وُجودٌ، ووجودك عطاءٌ لكلّ ما رغبَ راعبٌ وشاء... واستمرارٌ تخبرينا من خلاله- ربّما راضية أو هازئة- أنّك لا تحتاجين للثناء ...

تعطينا الحياة حين تفجرين ضرعك؛ مُغدقا علينا حليب الوجود ، دون أن تفكّري في الفطام ... يتدفّق مدرارا، ونعترف منه اغترافا ... وربّما دعانا طمعنا أن نحجز دفعه بالسّدود والعراقيل ... فلا

تأبهين ... وتسيل مآقيك ماء ثجاجا... يفرحنا، ولا نفطن بالاعتناء
بالعيون المدرارة ...

تعطينا إذن الوقوف والدّوس بأقدامنا على أديمك، وأنت مدركة أنّ
وجهك الجميل هذا يُمتن في سبيل خدمتنا، ولكن ربّما كان عزاءك
معرفتكَ أنّ المادّة تدوس ذاتها .. فأنت الأصل الذي أوجد الفرع،
وتستعدّين وترغبين في التّضحية من أجله، وتسمحين له أن يخوض
ويجوب في أرجائك كيفما شاء!... ولا تواجهين .

تسهّلين علينا عمليّة اختراقك؛ كي نرسي قواعد حجارتك التي جُدتِ
بها علينا؛ لتأويننا وتحميننا من ويلات غيرك .

تعطينا الجمال الذي تعدّدت صورته، ويعجز العقل والإدراك عن
الإحصاء... ولولاه لأصبحت الدنيا خواء، وما تغنّى وأبدع الشعراء ،
وما طرب حسّون وهام نشوان في الفضاء، ولا تراقصت الفراشات
في تيهٍ وخيّلاء ... والنّحلات أنى لها أن تلثم أفواه أحلى الزّهرات،
وترتشف من رحيقها ؛ لتحوّله إلى أطيب المذاقات ؟! ...
أمّا نحن...

فنعطيك جنث موتانا؛ كي تحتفظي بها؛ لأنّا أعجز من أن نبقيها أمام
ناظرينا ... تستقبلين ولا تتأوّهين ... ولكلّ ما دفنّا معها من هموم
تحتضنين ...

نردّ لك ماءك العذب الصّافي ملوّنا بأصباغ الأذى، وعَبَقًا بروائح
تزخم بها أنوف المدى، فيصيب الكونَ الزّكامُ ، حين تنتقل العدوى
سائرة على غير هدى... فلا تشتكين، وبشَحِّ الموارد عقابا لا تفكرين
.

نعتدي على حياضك، فنقطع أشجارك، ونقطف أزهارك، ونحرق
فتنتك، فلا تيأسين، ولأكاليل الجمال تبقيين خير المزيّنين، وتعدّقين
علينا من بهائك طيلة السّنين.

نمتصّ رحيق خيرائك ونعتصرها، ونقذف في وجهك ما تبقى من
فتات يتحوّل إلى قاذورات ... فلا ترفضين، وتمتصّين ما ساح من
وخم وزخم، ولا تلطمين .

نردّ لك الخيراتِ عوراتٍ، ونغفل عن مدح حُسن صنيعك.. فلا
تطالبين. لكنّا، نخشى صمت المحسنين إذا أصبحنا يوما في نظرهم
مقصّرين ... نخشى أن تباغتينا بعقاب ينسينا كلّ خيرائك؛ فتهتزيّن
وتهزيّن معك كلّ عطاء وزينة ، فنخسره، وتخسرينا ...

وتظلّ بارقة أمل نأمن فيها غضبك، بعد حسن برّك، حين ترطبّ
ثراكِ دماءُ أترابك من شهدائك الذين أكرموك، وقدسوك كلّ النّقيس
.. فقدّموا لك خمرة أجسادهم في كؤوس الفداء ... بكرعها تنتشين،

وبشديّ قدسيّتها تتعطّرين ؛ لتبقي راضية ... ولنا حاضنة ورعاية ... وبنا رغبة وآمنة ...

فَأَنْتَ الرَّحْمَ وَأَنْتَ الْوِلَادَةُ وَأَنْتَ الْكِرَامَةُ وَأَنْتَ الْحَيَاةُ!!!!!!!!!!!!!!!!!! ...

خَزْنُ السَّعَادَةِ وَوَحْزُ النَّعَاسَةِ

تربعت السَّعَادَةُ عَلَى عَرْشِ مَمْلَكَةِ الْأَحَاسِيْسِ، وَعَقَدَتْ اتِّفَاقًا وَآدَمَ فِي الْجَنَّةِ؛ مَتَسْرِبِلَةً بِمَا أُغْدِقَ عَلَيْهَا مِنْ بَرَكَاتٍ وَخَيْرَاتٍ. حَسُنَتْ إِقَامَتُهَا، وَضَرَبَتْ أَطْنَابَهَا، وَتَتَعَمَّتْ وَأَوَّلَ الْخَلْقِ الْبَشَرِيِّ بِسَنْدَسِ الْعِطَاءِ وَالْخَيْرِ... لَكِنْ، لَمْ يَدَمْ حُكْمُهَا، وَنُقِضَ غَزْلُ الْمِيثَاقِ الْمَوْقَعِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَمْلَكَتِهَا، حِينَ حَاوَلَتْ سِلَاسِلُ النَّعَاسَةِ الْمُنَافَسَةَ، عَارِضَةً وَسُوسَتَهَا وَإِغْرَاءَهَا مَمْزُوجِينَ بِرَحِيقِ وَمَسْكِ السَّعَادَةِ، وَمُوشِيِينَ بِبَرِيقِهَا. وَنَجَحَتْ فِي ذَلِكَ وَغَرَسَتْ أَنْيَابَهَا فِي فِكْرِ وَحْسٍ أَوَّلَ مَخْلُوقِينَ بَشَرِيَّيْنِ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ، وَارْتَشَفَا خَمْرَةَ الْإِغْرَاءِ مِنْ كُؤُوسِ الْخَدَاعِ، فَطُرِدَا مِنَ النَّعِيمِ خَاسِرَيْنِ رَغْدَ الْعَيْشِ السَّلِيمِ!.

مِذْ ذَاكَ الْحَيْنِ، أَقْسَمَتِ النَّعَاسَةُ أَنْ تَسْلُبَ الْجَمَالَ وَالزَّيْنَةَ مِنْ أَصْحَابِهَا حَيْثُمَا حَلَّتْ، وَأَنْ تَزْرَعَ الْأَلَامَ أَيْنَمَا وَطِئَتْ، وَأَنْ تَبْذُرَ بِذُورَ الْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ كَيْفَمَا تَسَلَّلَتْ .

ثارت ثائرة السّعادة التي حرّمت نعيمها، وأقسمت أن تظلّ المحارب الذي يقف لها بالمرصاد، وألّا تسمح لها أن تعيث فسادا في الأفكار التي تحاول أن تتّخذ منها مهادا... وأقسمت أن تشدّ الهمم، وتريح النفس، وتشحنها بطاقة الأمل والتّأمّل...

لم تأبه التّعاسة واعتبرت نفسها الحياة. فلولاها لما وُجد آدم على الأرض، ولبقيت يبابا! فقرّرت أن تستوطن حجرات الفكر أوّلا؛ لتنشئ مستعمراتها، وتهدم كلّ مملكة السّعادة وما قامت ببنائه، حتّى بُعيدَ طردها من الجنة، وذلك لتثير حفيظتها.

تحاول السّعادة تطويق ما بقي من حجرات الفكر بعد خسارتها الأولى بمعاونة كلّ ملائكتها، قبل أن تستولي عليها أبالسة التّعاسة الاستيلاء المطلق... وأنّى لها ذلك مع إصرار سهام الأخيرة على التّحدّي؟!... فما هو دم هابيل يُهرق، ويعجز قاتله عن مواراة سوءته، فيقعد ملوما مدحورا...

ولن تسدّ تلك الدّماء رمقها، وراحت تشهر شتى أنواع السّلاح؛ كي تشبع جشعها منذ زمن قابيل وهابيل، إلى زمن إسماعيل وميخائيل... في وجه الصّغير والكبير.

فما هو الطّفل يعيش هائنا في كنف والديه، ويحسب أنّ العالم ملكه. يجرّ حبال سعادته متنمّعا بها أنّى توجهه... يكبر، فتجرّره أذيال

الخبية واليأس، حين لا يستطيع تحقيق ما يصبو إليه بعد ضياع أحلامه وآماله.

يعشق المرء ويهيم في واحة عشقه؛ قاطفا الثمار التي تحلو له. فلا يطول هيامه ويثوب إلى رشده؛ حاضنا صخرة واقعه الجديد التي قذفها الهجر والبعد في دربه؛ فيعيش مدغدا مشاعره بخمرة العشق الذي كان، ومتقلا كاهله بصلف ما هو كائن.

يُحرز الكثيرون النّجاح، وينير الفرح عيونهم ووجوههم، ويصرّون على التّمتّع بحرير هذا النّجاح وإبقائه عباءة تدثّر حياتهم؛ إلّا أنّ خيوط هذه العباءة تتقطّع حين تهاجم مقصّات الفشل الأجساد وتبقيها تتألّم آهات، والأرواح التي تتركها تشهق زفرات.

تنعم الأبدان بالصّحة والعافية، فتسمع أصوات أصحابها لربّها شاكرة، وتفرح وتظنّ أنّ الصّحة خالدة... وما أن يشتعل الرّأس شيبا، وتَهِنُ العظام حتّى تغدو الأفواه صارخة، ولبارئها شاكية، وكأنّا بها للنّعيم الذي عاشته في شبابها ناسية!

وتقبع الأجساد تحت وطأة الآلام خاضعة ولكن، لمصيرها غير راضية.

وتبقى عجلة الأيّام بنا دائرة؛ مغدقة علينا أحيانا من خزّ نعيمها؛ وغارسة أحييين من أشواك جحيمها.

فلتصمدي أيتها الخيوط الحريّة التي تدغدغ مشاعرنا في وجه تلك
الأشواك ووخزها؛ كي نستطيع الإفلات من أنياب شرستها التي
تقوّض أركان الحياة، وتفسد علينا مذاقها .

بين صفريّة الموجود ومئويّة المنشود

في لحظة من لحظات التّفكّر والتّفكير في حياتنا، قد نحسّ بصفريّتها؛ لأنّنا نريد مئويّتها... وبين الصّقر والمئة نضيع، ونضيع كلّ ما بينهما. وذلك؛ لأنّ لحظة التّفكير هذه قد يلفّها ويدثرها أخطبوط السّخط، والغضب، والحزن على ما ينقصنا من تحقيق لرغبات دفينّة. وحين نلقي بهذا الدّثار جانباً، وننتبه لما نملكه - ما بين الصّقر والمئة - نجده كثيراً... وهذا يغيظنا؛ لأنّ حاجة معيّنة نفتقدها تجعلنا في ضبابيّة فكريّة، تحجب عنّا نور وضوء ما نملك، سواء أكان هبة من ربّ العالمين، أو أمراً رغبتنا فيه، وحققناه، وكان ميزة لنا يحسدنا عليها الحاسدون، ويتمنّاها الرّاغبون...

يحرم بعض الأطفال الحنان في صغرهم... يكبرون، ويكبر معهم هذا الشّعور، حيث ينفخونه، ويخزنونه في خوابي معتمات، ولا يسمحون للنور باختراقها. يهربون إليها، ويستأنسون بوحشتها، وظلمتها، حين يسلّط عليهم النّور، الذي يرفضون مصابيحها. وكأنّهم

على عهد الحرمان، وتجميد العواطف باقون... ولكلّ دفء المشاعر التي تمنح لهم رافضون... وعن كلّ ما يحرّك مشاعرهم الطيّبة يعمهون... وأبواب الفرح يصفقون، ويقدّسون طين الشّقاء الذي جبلت عليه نفسيّاتهم القائمة. ويقضون الحياة على ما مضى يتحسّرون. وعن أجسادهم التي أوجعوها وسربلوها بأشواك تذرّهم، وسخطهم، لثياب الخزّ التي تأتّيهم عوضاً، هم ممزّقون. ويطلّون للحظّ نادبين، وربّما بمأساتهم مستمتعين؛ لأنّهم أصبحوا عليها مدمنين. ويضيع العمر مع ضياع مشاعرهم؛ ليصبحوا عند اقتراب نهايته نادمين...

يخفق قلب الفتى أو الفتاة حين تلامس أنامل الحب شغاف هذا القلب طرياً، فيحتضن الحبّ حتّى يعشّش فيه، ويتخذ من شرايينه صنابير مودّة وعشق يغدقها على الحبيب، ويغفّ العقلُ بغلاف القلب، وشفافيّته تجاه من يحبّ، فيمنع من الدّخل لضبط تدفّق الشرايين؛ لئلاّ تنفجر في يوم ما، فيقعد صاحب القلب مهزوما مذلولاً... ويبقى كلّ الجسم خاضعاً لما يمليه عليه هذا القلب، فينسج العشق أوشحة السّعادة السّندسيّة التي تغطّي مثالب كثيرة، وتلفّ صعاباً عديدة، وتحجب عن العين رؤية قبائح مقرّزة ورهيبة.

وتدور دائرة الأيام، ويحرم القلب البقاء وتوأمه، فتتقلب الأوشحة السّندسيّة مطاطيّة تمنع أكسجين حبّ جديد أن يخترق المسامات، أو

أن يلامس هذا القلب. وتحرق الآهات والتّهّدات كلّ جدران القنوات التي تخرج منها؛ ليبقى الاصطلاء ووجهه مانعين دخول من يحاول الاقتراب والتّطبيب.

وبعد يأس، وعيش بأس، وتخطيط وفحص، يرتبط صاحب القلب التّعس بزواج... فالحياة تتطلّب التّكاثر والبقاء، واستقرارا قد يعوّض الخسارة والعناء. وقد يلعب والحظ لعبة رابحة، ويحظى بمن تحبّه، وتتمنّى أن تكون ظلّه، وتزيل كلّ همّه، ولكنّه يبقى حبيب وهم عشقه القديم، وتغدو مشاعره كالمطاط الذي غلّف به قلبه، تمطّها وهميّة سعادة ما مضى، وتقلّصها واقعيّة حياة ما أتى...

ويعيش شرذمة مشاعريّة، لا يجد فيها وهج نيران عشقه القديم، ولا ينفعه همس حبّ يمنحه محبّ جديد... ويطوي سنوات عمره ناقما على الموجود، ومتحسّرا على المنشود. ويظلّ وهم تحقيق مدفون الرّغبات هو المرغوب... ويتذمّر لكثرة ما ينوء تحته ممّا جلبه لنفسه من المصاعب والخطوب.

يُحكّم الفقر أغلاله حول معاصم كثيرة مدّة وجيزة، ثم تفتح أبواب الرّحمة والفرج والإغداق على الأيدي المكبّلة؛ لتحرر وتبسط وتحظى بخيرات المشتهى والمرتجى، فتمتلئ الجيوب وتثار الدروب؛ أملا أن

يغرس الفرح أوتاده في القلوب؛ لتبقى عامرة بالشكر، ولتمحو ما سببته أيام ندب الحظّ والفقر من ذنوب...

بعد كلّ هذا، ترى الوجوه وكأنّها وشمّت بالكآبة، والأجسام تتحرّك برتابة، ولا شيء ممّا تمرغوا لأجله على ثرى الدّعاء، يجلب لهم السّعادة... لا يكتفون بما نالوا، وألسنتهم تلهج: هل من مزيد؟... بل تراهم في فلسفة فكريّة يقولون: لو كان هذا فيما مضى، أيام أرقنا العوز والجوى... فلا هم في نعيم الغنى يرفلون، ولا ذلّ الفقر يطلّقون... ومنهم من يجبرهم الحرص على خزن ما كسبوه؛ لأنّهم يخافون أن يفقدوه... ويطلّون دائمي التّفكير بما عانوا ويعانون، فلا هم مع المال متأقلمون، ولا لحياة شحّ موارده ناسون... وخوفا من فقد الموجود، يعيشون الفقر؛ ليحافظوا على الغنى الذي أخفي، ولا يظهر للوجود.

وتظلّ النّفس على أرجوحة تحقيق الرّغبات، تتأرجح على أغصان الحيرة فيما تملك وما تريد، وربما ظلّت تدور في دائرة هل من مزيد؟!...

سباحة بين الحروف

أرغب المكوث بين زوايا حروفك الأربعة؛ لأبقى حبيستها ومحروسة بكنفها .

إنّي أروم من "رائك" رتق ما تفتّق من وشائج وأواصر الإيمان والفكر؛ لكثرة ما صُبّ فوقها من قصدير الملهيات، والمشقات الدنيويّة، فتفكّكت، وذابت بعضٌ من روابط الخيوط التي رغبت في إحكامها الأبديّ؛ كي أحظى بديمومة المباركة والهناء ...

أحبّ من "حائك" حبّك كلّ حبال الفكر والجسد، بعد رتقها وربطها بوتد الخشوع والمناجاة؛ لنلّا تتفلت من عقال لذة الفوز بجائزة التقرّب إلى خير قريب، والنّجاة من كلّ الذّنوب ...

أطمع بـ "ميمك" مباركة الوقوف، والمكوث في رحاب من أحببنا سرمدية المكوث بين يديه، ولسوء حظّنا، تجربنا مشاغلنا وأهواؤنا الدنيويّة على التّغيب أحياناً، وقلوبنا تعصر ألماً، وتتحرقّ شوقاً

للعودة إلى كنفه، طامعة بالقبول؛ لأنه أحسن المظللين لمن أراد أن يستظل بظله، ويستتير من نوره، بعد أن هفا بابتعاده اللامقصود، ومشى في دهاليز التقصير والابتعاد ...

وأعشق من "تائك" تقبل التوبة، والفوز بالخمرة التي تتعش النفس، وتوقظها من سبات الملهيات؛ لتعود مطمئنة راضية مرضية، لا لاهية ناسية منسية... وكذلك الفوز بزيت مداواة وتطهير الجسد من لسعات حروق الآثام، التي تشوّهه، وتجرحه إلى هوة الذنوب، والمهلكات...

ألا، فدثريني أيتها "الرحمة"، ونثي شذاك الذي يعبق بمسك مميّز تنضحه رشاشات علوية؛ لتطهر به آفات سفلية جذبتها رغبات دنيوية، نسيت نعيم الحياة الأبدية، وتاهت وأضاعَت ميزاتِها الفطرية، ووهنت عن الإمساك بالخيوط الإيمانية. وإنّي لأتذلل لمرسلك أن يبسط جناحك عليّ ليلفني براء رتقك، وحاء حبك، وميم مباركتك، وتاء تقبل توبتي ...

اكتمال وتجزئة

قال الكلُّ متباهياً: أنا من بُشِّرَ أهلي بالرحمة، والفوز السرمديّ؛ إن ظلّوا تحت كفي، ولم يحاولوا نتفَ ريش جناحي؛ كي يفلتوا ويلحقوا بسربٍ من لا يتحملني ويطيقني...

أنا من حمل أتباعي رايات الخنوع دون تدمرٍ ونزور؛ لأنّ في تدمرهم نقصانا يخلّ بتوازن الأمور، ويغيّر ما في الصدور، وما كان من تير الثبور يُمسي تينَ الأجور.

أنا مسطور على قلوب، لا يعرف الجزع إليها مسلكا، ولا تلقى الشكوى فيها ملجأ، ولا القنوط مرتعا.

سمعت الأجزاء ذلك، فأغاضتها قلة اعتبارها مما تلقفت آذانها، وراح كلّ جزء ينضح ما في إنائه في وجه الكلّ.

قال الجزء الأول:

أنا الصّدّ لأمواج الوسوسة التي تضرب بي، وتبغي سحبي إلى بحر
النّزّم والمعاصي... تتخرّ حجارة جداري ولكنها، لا تستطيع هدمَ
سوري، ودخول حياضي.

أنا صمتُ الصّراخ وصراخ الصّمت... إن تجاوز يوماً ما حنجرتي
أبحّها، وأخرسَ حناجرَ الآخرين.

أنا الصّيّادُ الوحيدُ الذي تلتقطُ صنّارتي عوالقَ البحر، ولا أغضبُ
لعدمِ الفوزِ بالسّمكة... وأظُلُّ ألقى بها؛ عليّ أفوزُ ذاتَ مساءٍ، بعدَ
خسراني في كلّ الأصباح.

قال الجزء الثاني:

أنا البحرُ المجهولُ... أعماقي غورٌ لأصعبِ الأمور، وأمواجي همّ
جسور، وشاطئ غيرُ مأمون. تصبّ بي ينابيع ذات شجون...
أحتضنها ولا أشكو رائحتها... وتمخر عبابي بواخر بشتى المواد،
وندرّة العتاد، ولا يدري بتقلّ الحمولة إلّا ربُّ العباد.

أنا البُعدُ عن كلّ ما يملكه غيري من المحظوظين... أعصبُ العينين،
وأثبّتُ الجوارحَ بأوتادٍ أديم الزّاهدين؛ كي لا تتمرّد وتفلت؛ مشتهيةً
أطايبَ الآخرين؛ فأقعد متحسراً في زوايا المحرومين، وأندبُ حظّي
مقارناً إياه بحظوظِ الوافرين.

أنا البرُّ الذي تحتل سهولي أشواكُ وحسكُ النباتات التي تشمخ، فتذبلُ
الزَّهراتُ الوردِيَّاتُ، ويصبحن للعطرِ مصرَّراتٍ محسَّكاتٍ؛ ليجدني
مَنْ مرَّ بي؛ أَمَلًا الاستمتاعَ بربيعي، قد افترشني ببسُّ الجمال،
واعتراني سوءُ الحال، ولكنِّي، لكلِّ هذا غيرُ مبال.

قال الجزء الثالث:

أنا الرُّويَّةُ المغايرةُ لرُّويَّةِ الآخرين... ما يروْنهُ سخطُ القدر، أنظرُ
إليه بشذراتِ النَّظر. وتساندني الرُّويَّا التي تحزمُ خيوطَ المعضلات،
وتعدني بجدلِ حبالِ المسهَّلات.

أنا الرِّسالةُ التي كُتبتْ حروفُها بمدادِ الابتلاءِ والمعاناة، ولا يستطيع
أحدٌ فكَّ رموزِها؛ إلَّا إذا غاصَ في بعضٍ من حروفها، وعَلِقَ به أثرٌ
من مدادِ نزيِّفها... ورسالتي ليست من الرِّسائلِ المطويَّاتِ في
صناديقِ مهمَّلاتٍ، تعصرُها لَذَّةٌ أو شقاوةُ الذِّكريات.. إنَّها رسالةٌ
تتطلَّبُ العيونَ اليقظات، والقلوبَ الخاشعات، والألسنةَ اللهجات بأقدس
الكلمات؛ طمعًا في انقشاعِ سودِ الغيمات.

أنا الرِّضا بما يسكنُ ذاتي، وإن أدَّى إلى غريبِ الخلجات... أثبتُّ
سرورا أرضي به كثيرَ ذوات، وأكتمُ الحزنَ حُزْمًا وذوَابات؛ لأنَّ
ابنتي القناعة تحدَّثني أنَّ هذه الحزمَ مصيرُها في إحدى الصَّبيحات،
المغادرةُ إلى أقصى الزَّوايا والجهات.

أنهتِ الأجزاء استعراضها، وتباهيها، وعادت يلملم بعضها بعضاً، من يمينها لشمالها، فأعادت الصّاد والباء والراء لحمتها؛ بعد أن أظهرت أن قيمة الكلّ من قيمة الأجزاء...

وقف الكلّ مغتاضاً بسبب التجزئة... وهو الذي يقف باكتماله جبّاراً ممتصّاً كلّ الصّعاب، ونفسه تسوّّل له التقليل من قيمة الأجزاء، بالتفكيك ثانية، وإعادة جمعها من شمالها ليمينها؛ ليربها فلسفة غير فلسفتها التي تباهت بالتجزئة، لكنّه انتبه لكون الأجزاء والكلّ حقيقة التي يعتزُّ بها!... فتراجع وهتف:

إنني أنا الكمال، وإن بدا ظاهري شوكاً يخزّ أفئدة، وجلوداً من يعايشني، وطعمي مُراً يفسد حلاوة فم من يتذوّقني... فإنّ باطني حلّو مذاقه، سهل اغترافه، وأبدى هناؤه لمن استطاع الصّمود، وحفظ العهود؛ أملاً بأن يحظى برضا الرّبّ المعبود، وتحقيق المنشود .

في الخفاء

تلفّ أوشحة التّقصير عدالة الإنسان حين لا تطال مصداقيّتها سوى الظّواهر من الأمور، ويخفى عليها الكثير من البواطن التي هي أشبه بخلايا سرطان تفتك بعظام عظيم القضايا، ولا أحد يتمكّن من حقنها بالأمصال الكيماويّة للقضاء عليها؛ لأنّ أجهزة الفحص والتّشخيص لا تطالها، ولا تدري بها إلّا الصّدور الحاقدة، والنّفسيّات الشّاردة في وعورة تخطيطاتها التي تبغي إلقاء غيرها في قعر الهاوية؛ كي تظلّ رغباتها الجامحة في السّيّطرة هي السّائدة والسّائرة في دروب التّدмир؛ لإشباع شهوة الافتراس لكلّ ما تبغيه.

يعيش البعض وأفعى الحقد في داخله تنفث سمّها، وتغرس أنيابها فيمن حولها، وتتناسل رغبة في القضاء على كلّ الأجناس إلّا جنسها. فمثل هؤلاء لا يهنأ لهم بال إن داس غيرهم عتبات النّجاح، أو رفرف لواؤهم في سماء الرّفعة أو غنت لهم الأيّام مواويل النّصر وإحراز الأهداف... فتراهم يتقرّبون منهم زلفى، ويدعون عليهم

بزوال نعمائهم خلسة، يرسمون الابتسامات على وجوههم حين لقياهم
تودّداً، ويسطرون الغضب على قلوبهم حين مغادرتهم تذرّماً...
تتوطّد روابط الصّدّاقة بين اثنين ، فتغدّق المشاعر بالأرطال، ولا
يعرف حدّ لسطوة العواطف والفكر هذه؛ حتّى يببّيت كلّ واحد في
دائرة وفلك الآخر، ووعاءً ينضح فيه كلّ ما عنّ على الخاطر.
ويصل الأمر إلى خشية أحدهما من بُعد توأم روحه كي لا يخسر
ذاته... تتوالى الأيام، وتتقلب الأحوال ليرتقي أحدهما سلماً للنّجاح أو
الشّهرة، فتذهل عيون الصّدّيق النّاظر إلى من أبّقاء حظّه على قارعة
الطّريق الذي بدأه معاً، وهو يتلوّى لاعنا وشاتما حظّه مقارنة مع
نذه. ويتطوّر الأمر لبثّ إشعاعات الحسد والغيرة صوب من كان
الرّوضة التي يجلس في أفيائها وقت الهاجرة، ناسيا ما تناولاه من
طيب الثّمّار، ويدخل دائرة يضيق محيطها بتساؤلات واهية: لمّ هو
ولست أنا؟! ولا يخطر بباله أنّ هناك قوى علويّة تدير الدّقّة، وتقرر
عيش الإنسان في رخاء أو شدّة، وأمورا غيبية لا يعلمها إلّا ربّ
البرية.

تلفّ عباات الفضيلة أجساد من يدّعون أنّهم الفضلاء، ولكنهم لأسمال
الرّذيلة عبيدٌ في الخفاء، حين يشتهون أجساد من حرّمت عليهم من
المحصّنات اللاتي يرغبون بهنّ في أحضانهم إماء...

يحسبون ألف حساب لنظرات من يعرفونهم من الأهل والخلان،
فيمسكون بحبال المحبة والإغداق لسمو السلوكيات. ويتمسكون
بمناصبهم الاجتماعية التي ارتقوا إليها، يعضون عليها بالنواجذ،
ويعتبرون أنفسهم في صروح العزة والإعزاز، ويسيرون مجررين
لأذيال العفة، والناس من ورائهم تبغي أن تحظى ببركة اللمة.
وبعيدا عن العيون يزاولون أعمال البذاءة والخسة ؛ من امتهان للقيم
الأخلاقية، واستهزاء بالشيم الاجتماعية، وضرب لمصالح الآخرين
ممن كانوا في منزلة أدنى؛ لتبقى مصالحهم هي الأعلى. وقد يطرقون
أبوابا لا يطرُقها إلّا الأراذل، ويصرّون على الاحتفاظ بمكانة بين
الأكابر.

يهيم الأزواج عشقا بأزواجهم متوجين أحاديثهم بشهد كلام مقدّما
بقوارير مزينة بزخرف المشاعر فيستسيغ طعمه الطرف الآخر،
ويتمنى إبقاء حلاوته على لسانه ليبعد عنه طعم ما يهاجم البال من همّ
وكدر...

وما إن تلمح عيونهم جمال الحسان حتّى ينسوا ما سال منهم من
معسول الكلام، بصمةً على ميثاق الحبّ لمن اختاروها شريكة في
السراء والضراء... وأحيانا يطلقون الأعنة لأفراس قلوبهم لتطارد
ربّات الجمال وساحرات الألباب .

ولا يقتصر هذا الأمر على الرّبع من الرّجال، بل يتعدّاه إلى النّساء. فمنهنّ الماكرات اللواتي يصطنن بشباكهنّ ما طاب لهنّ من صيد... توزّع إحداهنّ جميل الأحاسيس بالأرطال، وتُشعر كلّ من فاز بقلبها أنّ قد أزهرت له حدائق الأيّام... وتظلّ لسلسلة المكائد ضاغطة عليها بإحكام، ومتلعبة بالقلوب مرتكبة جرائم الكذب والخيانة والنفاق... وتداهن وتذرف من الدّمع ما يعبّئ جرارا، حين يفلت أحدهم من صنّارتها وكأنّه الوحيد المحتلّ لقلبها!.

ومنهنّ من تحبّ رجلا، وتتزوّج من آخر. تعاشر الزّوج وتهيم في صحراء العشيق السّابق، متأرجحة بين أشواط أرجوحة الخيال وسرير الواقع الذي تنتهك حرّمته بالتّحليق في سماء الأحلام.

تنزّي نساءً باللّطافة وتتباهى بحبّ الخير، وربط أواصره بين أفراد العائلات متظاهرة بالتّسامي والدّعوة إلى التّعاون والتّآخي. وفي الخفاء تتخرّ أرصّة أفكارها وشعورها، أوتاد الخير الرّابطة للمجموعة وقاطعة خيط الوداد بين الأقرباء إلّا من الجزء الذي يخصّها وعائلتها المصغّرة، من زوج وأولاد، فإنّها توزّره لتظلّ أسرتها برباط الوفاق، وبنهر من الحبّ دفاق تروي منه شجرات بستانها، وإن جفّت مياه بساتين المحيطين، واشتعلت النّيران في الهشيم، وبات الجميع على رماد عيش جسيم!.

يتباهى الأهل في أحاديث النهار بالذرية، ولا يظهرون سوى بسط الأيدي كل البسط في التعامل الودود، والسعي الدؤوب وراء ما فيه الخير للأبناء، ولكنهم يغفلون أياديهم إلى الأعناق في التمييز بين من يدعون أنهم قرّة أعين لهم ... يميلون بقلوبهم ناحية أحد أبنائهم، ولا يتمكنون من الإخفاء، وإذا ما سئلوا أجابوا بأنّ للقلب ما يريد، ولكنهم يعملون جاهدين للإنصاف، ولا يفطنون أنّ ميل قلوبهم قد يجعل نيران الكراهية والغضب تأكل قلوب من لا يحظون بمكانة مثل أخيه، فتنهش ذنبيّة إخوة يوسف قلوبهم حقدا عليهما. ومن الأهل من يبذل الغالي والنفيس في سبيل الارتقاء بأحد الأبناء إلى أعلى درجات العلم، محتجّين بعدم الاستطاعة الماديّة لتحقيق طموحات ابن آخر. وهم بهذا يدقّون أسافين الكره والعداوة، فتفقس الحسرة حشرات تأكل من وجبات أيّام المحروم؛ لتجعل سنوات عمره عطشى لماء أراد شربه من كوثر رغباته، ولم ينهل سوى الجفاف...

غيض من فيض زلّات وجرائم الخفاء التي تحدث على مسرح خشباته ينخرها سوس الخداع والرياء ويحتاج إلى ترميم وإعادة بناء. وتعوز المسرحيّون البعيدون عن عين الضمير وحساب الأنا، الصّحوة والمراقبة، وتتبع العورات، ليس لأجل لأجل الموت همّا، بل لحياة أكثر سلاما وأمنا!.

برِّ العُقوق

أَيُّهَا الْمُعَشَّشُ فِي خَلَايَا الْفِكْرِ وَالرُّوحِ، ضَارِبًا فِيهَا أَطْنَابَ مُسْتَعْمَرَاتِ
الْأَشْوَاقِ إِلَيْكَ، تَجُوبُ فِيهَا فَتَجْعَلُهَا رَوْضَةً غَنَاءً، تَعْرِفُ طُيُورُهَا
أَلْحَانَ فَرَحِ لُقْيَاكَ ... وَتُغَادِرُهَا فَتَتَعَبُ غُرْبَانُ التَّحَسُّرِ فَقَدْ مُحْيَاكَ ...
رَسَمْتُ مَلَامِحَكَ الَّتِي غَابَتْ طَوِيلًا، فَتَجَسَّدَتْ أَمَامِي وَجْهًا جَمِيلًا
أَغُوصُ فِي عَيْنَيْهِ وَقْتُ غَارَاتِ أَحْزَانِي، وَأَخْتَبِي بَيْنَ أَمْوَاجِ الزُّرْقَةِ،
الَّتِي يُطَهِّرُنِي مَاؤُهَا مِنْ بَرَاثِنِ الشُّكُوى، وَيَقِينِي آلَامَ زَفَرَاتِ الْحَسْرَةِ
... لَكِنَّكَ، تَمَلُّ سِيَاحَتِي سَرِيعًا، وَيَقْذِفُنِي مَوْجُ عَيْنَيْكَ إِلَى الشَّاطِئِ؛
لَأَجِدَ عَيْنِي قَدْ غَطَّتْهُمَا صُفْرَةُ الرَّمَالِ، وَمَنْعَتَا مِنْ رُؤْيَا الْجَمَالِ؛
فَأَجْلِسُ عَلَى صَخْرَةِ الْكَآبَةِ وَأَنَا أَخْشَى خَطَرَ الْانْزِلَاقِ إِلَى الْأَعْمَاقِ،
وَأَسْمَعُ هُتَافَ نَوْرِ الْبَصِيرَةِ يُنَادِينِي؛ لِيَضَعَ بَيْنَ يَدَيَّ مَجَادِيفَ زَوَارِقِ
الْإِنْفَادِ، فَيَزِدَادُ حَنَفِي، وَأَتَمَنَّى لَوْ أَعْدَتَنِي إِلَى شَاطِئِ أَمْوَاجِ عَيْنَيْكَ؛
لِلرَّتَاحِ وَأَسْتَكِينَ ... لِأَنَّكَ الزَّوْرَقَ الْوَحِيدَ الَّذِي أَبْغِي ...

عَلَّقْتُ صُورَتَكَ جِدَارِيَّةً عَلَى حَائِطِ قَلْبِي؛ كَيْ يُغَذِّيَهَا دَفْقُ الْمَحَبَّةِ؛
وَكَيْ تَكُونَ الطَّبِيبَ الَّذِي يُجْرِي لَهُ الْقَسْطَرَةَ، إِذَا مَا تَرَكَتُ فَوْقَ
شَرَابِيْنِهِ زُبُوتُ الشَّوْقِ إِلَيْكَ؛ وَلِتَحَافِظَ عَلَى وَتِيرَةِ دَقَّاتِهِ إِنْ شَوَّشَهَا
ضَعُطُ مَحَبَّتِكَ ...

انْتَظَرْتُكَ فِي بُهْمِ لَيْلِ الْأَفْكَارِ نَجْمًا هَادِيًا، تُمَسِّكُ بِتَلَابِيبِ الْفِكْرِ،
وَتُهْدِيهِ الطَّرِيقَ السَّوِيَّ؛ لِكَثْرَةِ مَا يَرِدُ جَحِيمَ الْمَشَاعِرِ الَّذِي يَحْرِقُهُ
بَشْهَبِ الْحَيْنِ، وَيُبْعِدُهُ عَنِ الْيَقِينِ، فَلَا تَظْهَرُ وَلَا تَبِينُ ...

أَرَقَّتَنِي الْوَحْدَةُ، وَغَرَسَتْ غِيلَانَهَا أَظْفَارَهَا فِي أَحْشَائِي، فَاسْتَحْضَرْتُ
طَبِيفَكَ لِلْإِقَامَةِ وَالتَّطْبِيبِ ... وَمَا هِيَ إِلَّا دَقَائِقُ حَتَّى يَخْتَفِيَ حُضُورُكَ؛
رُبَّمَا هَازِنًا أَوْ خَائِفًا مِنْ مُوَاجَهَةِ غِيلَانِ الْوَحْدَةِ الَّتِي تُعْمِدُ خَنَاجِرَهَا
فِي دُرُوعِ السَّعَادَةِ، إِنْ اقْتَرَبَتْ مِمَّنْ تَلْفَهُمْ بَرَايَةُ تَعَاسَتِهَا، وَتَتْرَكُهَا
تَنْهَشُ كِيَانِي وَتَحْتَلُّ أَفْكَارِي، وَتُوَلِّي ...

سَهَّدْتَنِي الْمُتَمَنِّيَّاتُ قَابِضَةً عَلَى حُرُوفِهَا، وَمُحْكَمَةً الْإِمْسَاكَ بِمِيمِهَا
وَتَائِهَا؛ لِئَلَّا تَدُورَ عَلَيْهِمَا الدَّوَائِرُ فَتَقْلَتَا وَتَسْقُطَا، وَتُلْغِي الْمَنِّيَّاتُ بَهَاءَ
وُجُودِكَ الْوَهْمِيِّ ...

اِخْتَطْتُ مِنَ اللَّهْفَةِ لِاحْتِضَانِكَ، عَبَاءَ حَرِيرِيَّةٍ تَلْفُنِي وَإِيَّاكَ، وَتَمْتَصُّ^١
وَهَجَ الشَّوْقِ، فَيَذَرُنِي نَسِجُهَا، وَيَبْسُطُ نَعُومَةَ خُيُوطِهِ... لَكِنَّكَ، أَبْقَيْتَ
الْيَدَيْنِ فِي رَجْفَةٍ، تَحْتَضِنَانِ شَوْكَ عَبَاءَةِ النَّكْسَةِ الَّتِي زَمَّلَنِي بِهَا صَدُّكَ
...

عَزَفْتُكَ لَحْنًا تَرْقُصُ عَلَيْهِ مَشَاعِرِي، فَرَقَصْتَ عَلَيْهَا، وَعَزَفْتَ أَلْحَانَ
الْاغْتِرَابِ وَالْجَفَاءِ، وَحَوَّلْتَ الطَّرَبَ إِلَى حُزْنٍ وَعَنَاءٍ...

هَانَفْتُكَ عِنْدَمَا هَاجَتِ الْحَوَاسُ وَمَاجَتْ، وَعِشْتُ فَوْضَى شُعُورِيَّةٍ
عَارِمَةً أَنْعَبْتَنِي؛ فَسَمِعْتُ حَشْرَجَةً زَادَتْ مِنْ حَالَةِ الْهِيَاجِ، وَأَقْعَدَنِي
الْقَلْقُ عَلَى كُرْسِيِّ الدُّعَاءِ لَكَ بِأَنْ تُرَدَّ لِمُصَوِّتِكَ الْمَوْجَاتُ الَّتِي تُرِيحُكَ،
وَتُدَاوِي قَلْقِي ... وَأَقْبِعُ مُنْتَظِرَةً سَمَاعَ صَوْتٍ تُشَنَّفُ بِهِ الْأُذُنَانِ،
وَتُخَمِّدُ نِيرَانَ الْأَشْجَانِ...

تَوَهَّمْتُكَ فِي صَيْفِ الْأَفْرَاحِ عَرِيسًا تَدْعُونِي لِرُقْصَةِ "زُورْبِيَّة"
تُنْسِينِي تَقَرُّقُصَ وَجُمُودَ الشِّتَاءِ وَصَقِيعَهُ، وَتُرْسِلُ أَفْرَاحِي مُحَلِّقَةً فِي

سَمَاءِ الْبَهْجَةِ... لَكِنَّكَ، أَبْقَيْتَ عَوَاطِفِي مَقْرُورَةً، وَطُمُوحَاتِي مَحْمُومَةً
بِحُمَى الْقُعُودِ فِي زَوَايَا اللَّافَرَحِ ...

نَاجَيْتُكَ فِي صَبَاحَاتِ الْأَعْيَادِ مُفَرِّقَةً الْفَرَحَ، وَعَازِفًا أَلْحَانَ الطَّرَبِ
،وَمُضِيئًا لِفَانُوسِ السَّعَادَةِ، وَنَازِلًا الْحُلُوى عَلَى مُرِّي، وَمُسْتَبْدِلًا بِنَعِيبِ
الْبُومِ الَّذِي حَطَّ عَلَى شَجَرَةِ فِكْرِي، عِنْدَلَةِ الْعَنَادِلِ الْجَمِيلَةِ ... مَرَّةً
طَيِّفَكَ وَلَمْ أَسْتَطِعِ الْإِمْسَاكَ بِهِ .

أَيُّ بُنْيٍّ ... تَحَيَّلْتُ ... هَمَسْتُ ... قُلْتُ ... نَادَيْتُ ... صَرَخْتُ ...
هَانَفْتُ ... هَذَيْتُ ... نَاجَيْتُ طَيِّفَكَ وَأَسْمَكَ، يَوْمَ تَحَلَّقَ الْأَبْنَاءُ حَوْلَ
أُمَهَاتِهِمْ مُحْتَفِلِينَ جَذَلِينَ، فَلَمْ تَسْمَعْ، وَلَمْ تَلْتَفِتْ، وَلَمْ ...
وَارْتَدَّ الصَّدَى يُلَاطِمُ جَنَابَاتِ رُوحِي وَإِحْسَاسِي، وَاحْتَضَنْتُ خَيِّبَةَ أَمَلٍ
مَجِيئِكَ بِذِرَاعِي الْقَهْرِ، وَأَطْبَقْتُ شِفَاهَ قُبُلَاتِ الْوَهْمِ عَلَى الْجَفَافِ؛
شَاكِيَةً مُحَالَ التَّرْطِيبِ وَبَعْدَ التَّرْحِيبِ ...

وَبَقَيْتُ وَاجِمَةً وَقَدْ أَخْرَسَنِي عُقُوقُكَ، الَّذِي أُسَامِحُكَ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ
أَقْعَدَكَ عَنْ بَرِّي حِينَ عَقَنِي بِتَغْيِيبِكَ عَنِّي لِحِكْمَةٍ شَاءَهَا... حِكْمَةٍ
بَذَرْتُ فِي دَاخِلِي بَذْرَةَ يَقِينٍ أَخْبَرْتَنِي وَرُيْقَاتُهَا الَّتِي أَيْنَعَتْ بَعْدَ حِينٍ،
وَنَجَحَتْ فِي الْوُقُوفِ بِوَجْهِ الرِّيحِ، أَنَّ تَقَبُّلَ عُقُوقِكَ هُوَ بَرٌّ بِرَبِّ

العالمين... وَهُوَ الْبِرُّ الْعَظِيمُ... وَأَنَّ عَقْلَانِيَّةَ الْيَقِينِ تُحْتَمُّ أَنْ تُهْزَمَ
شَهْوَةُ الْحَنِينِ .

بطنة وفطنة وفتنة

حميَ وطيس المعركة، واشتدَّ أوارِ العصارات الحامضيّة، فتأوّهت
ساحة تلك المعركة؛ لأنَّ أسنّة الوجع قد أشبعتها وخزا؛ طالبة
الضحايا لإذابتها ... ولمّا لم تجد نخرت طلفاتها المكان ... فصاحت
الأرجاء:

ويلي! ما به صاحبي قد نسي إمدادي بالذخيرة، والعتاد اللّازمين
للصّمود في وجه هذه الحرب الضّروس للأحماض التي تعصرني
عصرا؛ علّها تجد ما يسدّ رمق حنقها، ويرضي جشع شهوتها، وبتّ
لا أقوى على مواجهتها؟

لم تدركِ المعدة كُنّه الأمور، وهولَ ما يدور، عندما طال حرمانها،
وأخذ التعب منها الكثير، وبات يؤرّقها ما آلَ إليه حالها، فرفعت لواء
الاحتجاج في وجه هذا الخواء الذي يجرّ عليها جريرة شرسة . ولكنّ
احتجاجها لم يجد نفعا في تلبية رغبتها؛ بل جلبت الاستهزاء لنفسها
حين صاح بها العقل:

ما بال صاحبتنا؟ ألا تستطيعين تحمل الراحة من ثقل العبء ساعات؟ وفي ذلك إراحة لك ولغيرك ممن تتقلينهم بنقل ما تلتهمين؟!...

أراك شاكية باكية، ولست متحملة حرمانك رغباتك من طيب مشتهياتك التي أتمدك كثرتها، ووددت إراحتك بعض الوقت من عنائها!... تثورين وتولولين ليسير ينقصك، ولم أرك مرة قد التفت لما ينقص غيرك من أقرانك ... فلا تأبهين لبلواهم، ولا تشعرين بشكواهم.

ها أنا أترك فترات دون تغذية بما أشتهي وأبغي ... قد ينسى صاحبي أو يتناسى حاجتي في التزوّد بما هو جديد، ويتركني أجتزّ ما غذّاني به في الماضي السّحيق، فلا أستسيغه؛ لأنّه يلغي كلّ جديد، ويتحكّم بي تحكّم الأسياد بالعبيد.

إنّ طعامي مختلف ويحتاج إضافة توايل بنكهات مختلفة؛ كي أسعد الآخرين بموائد الفكر وبساتين المعرفة، ويحظّوا بالتّباهي بالمذاقات الجديدة للأطعمة، وليس مثلك إذا ما كثر ما يزودك به صاحبك، وكثرت التّوايل، وزادت من حرارة طعامك؛ فإنّ حمّى الشكوى تكوي غيرك... فيتعب الجسد، ويقعد خاملاً، فتغادرني الفطنة، وتغدر بي الحكمة!.

رغم هذا، تحرصين أن تزوّدي بما تريدين، وتدأبين على نيل ما ترغبين، وأراك بكلّ نعم الكون الاتهاميّة تطمعين، وما يتخّمك لا ترفضين.

غضبت المعدة وهي التي تحسب أنّها المموّل والمغذيّ الرئيس للعقل ... تتعب في الطّحن والعصر، وتتخّمها زوائد الحاجة؛ طمعا في التّنويع، وأحيانا تتألّم؛ طمعا في رضا الآخرين ... وها هي توبّخ ولم تجد لها نصيرا، ويبدو أنّ سدّ الرّمق بات عسيرا؛ لأنّها تبغي معاقبة العقل الذي يتبجّح، وينكر فضلها، ولا يشكر خيرها وما تقدّمه له سائغا غزيرا...

حبست أنفاسها وفي نيّتها الصّبر على جوعها؛ كي تجوّع العقل؛ ليدرك قيمتها، ويعترف بفضلها، مخفية ما تعانیه من عدوان الغارة الحامضيّة؛ لئلا تزيد من شماتته!.

لم تستطع الصّمود طويلا، فخارت قواها، وأصبح دأبها الدّؤوب ملء تجويفها بما تحتاج وتريد؛ ممّا زاد من غرور العقل الذي يدرك مصابها، فأردف يخبرها:

أدري بمعاناتك، وأعرف أنّك لا تستطيعين السّيطرة على غريزة الاتهام التي بها تتميّزين، ودونها لا تعيشين، وإن لم أشفق عليك وأرحمك، ستبقين رهينة ما تعانين. أنا الوحيد الذي أنهى أعذبتك،

وصرخات الأنين ... بشدّ لجام غريزة الاتهام؛ لتكتفي بالقدر القليل
الذي يشبعك فلا ترهقين!

هل لا تزالين تتبجحين بأنك صاحبة الفضل عليّ وعلى الآخرين؟!
وفيما المعدة محتارة بأمر غريزتها الاتهاميّة التي بات العقل يملك
زمام أمرها- حسبما ادّعى- صرخت:

أيّها المتحكّم بالغرائز، لماذا تحاول السّيطرة عليّ؛ محاولاً منعي من
النّعم التي أُحِلّت لي، وينتفع بها غيري، وأتحمّل النّقص والزيادة
لأجلهم؟ تشدّ لجامي، وتترك الحبل على الغارب لغريزة الجسد التي
كانت التّأبيل المحرّم، ولا يكشف سرّه إلّا من أُحِلّ له وبشروط
وقيود؟!...! فهي هو توابل معروضة في كلّ أسواق المعروضات،
سلعة تتنافس الشّركات في كيفيّة عرضها وكشفها؛ ممتهنة حرمة
الجسد، وهاتكة مقامه ... وما كان مقدّساً ووجب عليك المحافظة على
قدسيّته، دنّس وامتهن وأصبح الطّعم في مصيدة اخترقت كلّ ميادين
الحياة سرّاً وجهراً!...! وجعلت النّفس عبدة للإغراءات المحرّمة،
والتي حاربها وعيك بأوامر كتب ربّانيّة.. اتّبعتها العديد ممّن آمنوا
بها، ولم تبق إلّا القلّة القليلة التي تؤمن بما كان، ولا تستطيع السّيطرة
على ما هو كائن!

لقد اخترق (التَّابو) وانتَهكت حرمة، وتجاوزت الاختراقات الحدود، والمنكر أصبح معروفاً ، فشرعت الأبواب، وعرض على الملأ ما أخفته خلف مصاريعها، ولم يعد المتفرجون والمشاركون يميزون، ويدركون ما هم فيه منغمسون، وعواقب ما به سيقعون!...لأنهم في مياه الفتنة التي جرفتهم غارقون، وبأظفارهم هم بها متشبثون !

فأين أنت أيُّها الممسك بحبال الغرائز، الراغب بفرض سلطتك عليّ بشحّ الموارد والقناعة بالقليل، بينما موائدك تعجّ بالكثير من التوابل المحرّمة التي أضحت غذاءك ، وما تزودّ به لا يخلو منها، تضاف للكلمات، والمشاهد، والمسموعات... وما خلا منها بات لا يسمن، ولا يغني من جوع ... أين أنت من كلّ هذا يا مهذب ؟ يا من يتوقّع منه المنع والثّورة ؟ هل بتّ تخشى الثّورات والتمردّ على ما يقوّض أركانك وكيّنونتك؟ أم أنّك اعتدت غير المألوف فصار مألوفاً؟ أم أنّ العقال اهترأ وخرجت الأمور عن سيطرتك ؟

لماذا لا تشدّ الحبل للغريزة التي دنست المقدّس، وخلطت الأنساب، ولم يعد يعرف الابن الشرعيّ من غيره في دساتير أمم كثيرة ؟ هل انقلبت الآية فسيطرت عليك وعلى فطنتك غريزة الانفلات الجنسيّ والجشع العاطفي ؟ أم أنّك تحاول السيطرة على الأمور مبتدئاً بتهذيب

غريزة الالتهام التي أصابتها الشّراهة، مثلما أصابت كلّ الغرائز؛ كي
تعاود الإمساك بدقّة القارب وتوجيهه الوجهة الصّواب؟!...

الرّاحلون إلينا

كَمْ هُوَ قَاسٍ ذَلِكَ الشَّعُورُ الَّذِي تَخْتَرِقُ سِهَامُهُ أَعْمَاقَنَا، وَتُمَزِّقُ سَكَكَيْنُهُ أَوْصَالَنَا، وَتَحْتَلُّ تَدَايِيَّتُهُ أَفْكَارَنَا، حِينَ التَّقَاطُ الْأُذُنِ لَذَبَّاتِ كَلِمَةِ الرَّحِيلِ، وَاسْتِعَابِ الْعَقْلِ أَنْ فِيهِ اسْتِحَالَةٌ عَوْدَةِ الرَّاحِلِينَ...

وَكَمْ يَكُونُ أَشَدَّ قَسْوَةً، عِنْدَمَا نَرَفُضُ تَقَبُّلَ ابْتِعَادٍ، وَمَغَادِرَةَ مَنْ أَحَبَبْنَا إِقَامَتَهُ بَيْنَ ظَهْرَانِينَا؛ رَغْمَ تَمَلُّكِهِ لِأَحَاسِيسِنَا؛ حَيْثُ نَأْبَى الْإِيمَانَ بِاللَّاعُودَةِ، فَنُطَارِدُهُ؛ أَمَلًا أَنْ نَبْقَى مُمَسْكِينَ بِتَلَابِيْبِ مَشَاعِرِنَا الَّتِي أَغْدَقْنَاهَا عَلَيْهِ؛ وَطَمَعًا بِتَجْدِيدِ مَا كَانَ يَمْنَحُنَا مِنْ شُعُورٍ سَكَنَ ذَوَاتِنَا، وَتَزَاوَجَ وَمَشَاعِرِنَا !.

عَجِيبٌ وَغَرِيبٌ ذَلِكَ الدَّفْقُ الْعَاطِفِيُّ الَّذِي نَدْلِقُهُ خَلْفَ مَنْ رَحَلُوا، وَكَأَنَّا نَأْمُرُ دِيمَةَ مَشَاعِرِنَا بِاللِّحَاقِ بِهِمْ، وَإِغْرَاقِهِمْ بِمَطَرِ مُحَبَّتِنَا؛ كَيْ نُنْقَعَ دَوَاخِلُنَا أَنْ عَوَاطِفَهُمْ نَحُونًا لَا تَزَالُ رَطْبَةً، وَلَنْ تَجْفَ رَغْمَ عَزْلِهَا، وَسَتَبْقَى مِثْلَمَا عَهْدْنَاهَا، وَطَامَعِينَ بِنَدَاهَا ...

وَالْأَغْرَبُ أَنَّ نَجْدُدَ الْعَوَاطِفَ، وَنَضَاعِفُ مِنْ تَدْفُقِهَا نَحْوَهُمْ... فَهَا هُوَ الْمَوْتُ يَخْطِفُ مِنَّا عَزِيزًا، وَيَغِيبُهُ فِي سَاحَاتِ الْغَيْبِ؛ لِنَشْعَرَ بَعْدَ

حين أنه يرحل إلينا، وليس عنا . فيسكننا ونسكنه، ويحتل معظم ما
يحرره العقل من أفكارٍ، وجُل ما تفرزه العاطفة من مشاعر .
تفقد سلاسل الفقد كليتتنا، فنرغب أحياناً في شذها؛ لنلّا تفلت منا،
وتحرر ما قيّدته؛ رغم إدراكنا أننا نخوض غمار حرب عاطفية
خاسرة !.

تجف مآقينا ترطيباً لذكراهم التي نبغي إبقاءها حية بدمع العطف
والمحبة، ونحیی بها معتزّين، وبزرعها داخلنا متباهين...
ونقضي العمر، وفراشات أطيافهم تحلق فوق رؤوسنا، وصلیات
حنيهم لا تبارح لساعاتها جسمنا، فتغدو للجسد كاوية، وللروح
حارقة... ونعيش حالة تلبس وتقمص.
ننام... نقوم... نصحو... نغفو... نصرخ... نصمت... نحزن...
نفرح... نقسو... نلين... نتعب... نرتاح... نأبى... نرضخ... لا
تفارقنا الأطياف ولا لظاها ، ولا نريد لها فراقا... ولا ندري
لماذا؟!...

يفرق الدهر بين المحبين، فيرحل الحبيب جسداً، وتظل الذكرى
دثاراً يلف جسد المحب. يعيش داخله ناسجاً من خيوطه بيوتاً محجوبة
عن الأعين، يسكنها عواطفه القديمة بلوعتها، والجديدة بحرقتها...
ويشده أحياناً؛ ليشعر بالدفء، وينجو من صقيع البرد العاطفي .

ويقضي عمره تطارده الذكرى، فتراه يقعدُ مناجيًا ما مضى، وسابحًا
في فضاء أحلام ما انقضى؛ فيستفيق متأخرًا حزينًا على ما ضاع من
أوقاته سدى، ومندهشًا من حاله الذي يرى... فيحرقُ عليه الأرم،
ويتمنى لو هداه الله، وسقاه من كأس الهدى، لينسى عذابات من قد
هوى.

في انتظار...

تتقرّم الأوقات والأعمار أمام مارِد الأحلام التي ننتظر تحقيقها، وننير في سبيلها كلّ شموع السنين؛ أملاً في الاحتفال بميلادها لحظات، دون دراية لبواعث استعدادنا أن نقدّم أعمارنا أضحية على مذبح تحقيق تلك الرغبات...

نستعدّ لنيل ما نريد مدجّجين بكومات من الأفكار نطلقها في دروب المسير الطويلة، لا نملّ ولا نكلّ كثرة المشي... نرسم ونخطّط، وأحياناً نعيش لحظة الإنجاز، وإن وهماً، وتسكننا نشوة ذاك الخيال، وتسرقنا دغدغة المشاعر، وتسلب وقتنا أيضاً... وقد نصحو على هباء الاحتضان... وتتناسل الخسارة مُنجبة نسلًا يجرّدنا ممّا تبقى من مخزون العاطفة والفكر، أو محوّل مجرى النبع ليصبّ في بحر الغضب على ما تراءى لنا قيد الظفر، وأضحى قيد القهر، فنشعر بحاجتنا لمعجزة تردّنا إلى الطريق السويّ؛ خوفاً من بقاء الغضب ممسكاً بيد العاطفة، وجاراً إيّاها نحو مسالك الانتقام من النفس، التي

يُخشى عليها تجميد سيولة التفكير بكلّ جديد، وحجب ذاتها عن الرّؤى
المستقبلية والتّوحيديّة للمحافظة على بقاء سليم...

قد تُلقى الحياة في دروبنا زهرة جميلة، فتجرّنا تلك الزّهرة للتفكير
بولوج بستان، فنبدأ بالهرولة وراء الرّائحة التي أزكمت أنوفنا هنيهة؛
كي نحظى بأريج زهرات دهر... ونحرص أشدّ الحرص على
إروائها ومنع ذبولها؛ لتأتي بالكثير من مثيلاتها، ونكسب البستان الذي
ستزهر به الآمال، وتنمو في تربّه فسائل الأحلام... فيباغتنا الذّبول،
ويداهم الإيناع الذي عشناه وهمًا، وسقيناها ودًا، ويبقينا على قارعة
الدّهشة بعيون حيرى، وقلوب تلتاع... ويتخرّم حرير أحلامنا بشوك
ذاك البستان الوهمي، وتطلّ مشاعرنا رهن عرك رحي الخذلان،
متمنيّة غسل ذكرى الإحباط بماء النسيان، وغير مدركة لما تهدره من
سنين وأيام، وهي تغزل على نفس المنوال...

نخطّ ونبذل في سبيل التّنفيد جلّ ما ملكت أياديها، وعصارات
أذهانها، وسيول مآقينا؛ أملًا أن تزهر لنا الدّنيا وتتضج ثمار
الأمانيّات... وحين الجني يرقص القلب، وتعزف أوتاره أجمل
الألحان، وتأتي الفرحة حاملة صاحبها على جناحي بلبل النّشوة،
فينسى المنتشي تعب وحرّ وقود الأيام والليالي، ويعيش اللحظات
ويتباهى بها... وبعد قصير وقت، تعاف نفسه ما اعتادت عليه، وما

باتت فيه، فتراه قد امتطى مطية الضجر، وصار يطلق رشقات التذمر
من جعبة سهام التأفف والملل... وإن دُكر بما عانى وشكا لتجسيد ما
ابتغى، تجده ساخطا كارها الملام، حابكا حبال سخطه جديلة يلقي بها
على ظهر العتاب؛ لتظلّ محبوبكة بدبابيس الشكوى وأشرطة التذمر...
وربّما بدأ في الوقوف بمحطات انتظار جديدة لاعتلاء حافلة أمنيّة
أخرى، ويظلّ في سفر وانتظار...

تناسلُ البياضِ

تناسلُ البياضُ مُنجبا صفاءَ حبِّ القلبِ لك، والغطاءَ النَّاصع الذي لفَّ
جسدك بألق، والدُّنيا التي عشت فيها ولم تسطر على بيض صفحاتها
إلا الآهات المعجونة بالدموع الخرساء ولم أفهم معاني حروفها التي
بلّلت صفحات الخدِّ الأسيل، حين تدفّقها من نبع المآقي... تناسل
مرسلا ملاكا حمل روح الطّهر والبراءة إلى الأعالي بأحد جناحيه،
وفارشا الصّمت على بياض أغطية سريرك بجناحه الآخر...

لحظات من نور لفّت المكان وغلّفت ببهاؤها كلّ شيء، وفرضت
الرّهبة وعبق الخشوع أمام عِظم الموقف، ثمّ حلّقت روعي نحو
الأعالي شاكرة الرّبّ الذي أسدل علينا غطاء من رحمته، حين أرسلك
لنا وحين استردّك إليه لتسكن روحك مكانا أكثر جمالا
وسكينة... ولتفسد رهبتها كلمات النّذب والتّعديد تحسّرا على فراقك...
لقد تحوّلت الرّهبة إلى ثقل أوجعني، وأوقعني أرضا مشوشا رؤيتي،
وكأنّ العتمة احتلّت المكان لتثيرها إضاءة شريط أيّامك التي قضيتها

بيننا قريبا وبعيدا، رغم أنك كنت زادا نثر بركته على مائدة عائلتك باختلافك عمّن تحلقوا حولها غير منكرين لطعم ونكهة تواجدك، وشاكرين القوّة التي منحهم إيّاها عجزك.

لما كنت هناك وقفت حمائم أليك الشّوق تنتشر سجعها في سماء الدّعاء راجية منك الوصال بكلمة تريح أجنتها من كثرة الرّفرفة حولك... لكنّك لم تستجب لهديلها فراحت تنوح علّ الله ينطقك برّد على نعمة أحزانها وتغريد فوق أغصان آمالها، إلّا أنّ القدر أبقاها تعزف على قيثارة أوجاعها، وهي ترى الشّفتين جامدتين، والعينين حائرتين لا تقويان على المساجلة، وظلّت قابعة في برج ملازمته؛ خوفا عليك من نسمة تلامس خدّك وتزعجك بدلا من ملامسة يد دافئة...

ولطاما سبحت الأفكار في بحر لجيّ متسائلة عن شعورك ومتمنيّة معرفته منك أنت، وهي التي خطّته بريشة الفؤاد على صفحات اللّحظات كي لا تغيب عن البال؛ خوفا من وخزة تشعر بها، ولا تتمكّن من التعبير عن الاحتجاج لألمها.

ل كمّ تساءلت: ترى هل أنت راضٍ عمّا يجيش في خاطري، ويغزله مغزل أفكارى؟ أم أنّ الخوف الزائد عليك يزنرك بحزام الضيق ويزيد من شدّ زنار ضعف عضلاتك التي لا تقوى على تحريكك؟!

وتغمرني تساؤلات حدقتي عينيك، حين اجتماع إخوتك حول سريرك
مداعبين حرير شعرك، وكأنهما تصرخان بي وتلوماني : لم لا
تستطيع يداي العبث بشعري مثلهم، ولا تقدر قدمي على الوقوف
واللعب معهم؟ لم أنا مختلف ولكل ما ينعمون به مفقود؟!

يحرقني لهيب التساؤلات، ولكن ما يطفئ من نيران لوعتي أنهم منك
قريبون، وللاهتمام بك جاهزون.

تفتح روضات الأطفال أبوابها داعية كل البراعم إلى سهولها... أقف
على باب روضة براعم الأمل وأتخيلك جالسا بين أترابك، وأتسمّر
هناك بانتظار خروجك، وصوتك يصدح مالئا الفضاء شدوا
وضحكا... يطول الوقوف ولا تتحقق للعين بُغيثها، ولا للروح فرحتها
لحظة يذكرني طيفك أنك هناك على فراش لا تبرعم الآمال فيه ولا
تزهو.

تتعاقب حلقات الليالي التي تسمعني أنينك الخافت وقت يغمض جفني
المتورّم سهداً، فأهّب مذعورة لنجدتك، ولكنّ تلك الأجفان تطبق على
خيبة جهلي لما يبكيك!. وتحملني آهات شهدي على بساط الخوف من
التقصير وعدم إرضائك؛ كوني أجهل سبب أنينك، وأظلّ في حيرة
حتى تجعلني نغمات صوتك أوقن أنّ الأمر فادح، ولا بدّ من تدخل
أهل العلم والطبّ لحقنك بما يهدئ وجعك الذي كثيرا ما كانوا لأسبابه

يتكهنون، ولوجيب قلبي لوعة وإشفاقاً عليك يزيدون لدى رؤيتك مقيداً
بمطاط أجهزة تحيط بك، وتراقب جديد ما سيطراً عليك.
مكثت طويلاً بينهم، لكنهم لم يقولوا على إبقائك بيننا؛ لأنّ إرادة الله
أقوى من كلّ ما حاولوا ولم ينجحوا، وما أرادوا ولم يعرفوا. وها أنت
قد تناولت يد الرحمة لتقلّك إلى سرير الراحة السّرمديّة.

الصِّمْتُ

أيّها المولود العدميّ الآتي بعد مخاض عسير الأمور، ركنْتَ في زاوية السّكون؛ هرباً من كثرة الحركة والضّجيج، تخفي بين ثناياك اللاشيء... حروفك تأمر بالصّوم والموت، فملازمة صادق لميمك تقول (صم)، ومجاورة الميم للتّاء تقول (مت). وليس عبثاً أن تكون لبنتك من هذه المكوّنات، فأنت الصّوم والموت للصّوت والفعل والحركة!.

أنت الفناء إن صام الفكر، فإمساكه عن الطّعام يؤدّي إلى الجفاف، والجفاف ينذر بكارثة الالبقاء. فلا وجود لحياة قد جفّ نبع التّدبير، والتّخطيط، والإمساك بزمام أمورها. ستعصف بها الرّيح، ولا تبقي إلّا الهشيم متطايراً.

إن سكنتَ اللسان، فأنت البكم الذي يلغي كلّ نعمات الكون... كيف ستصّوح العنادل، وتغرّد البلابل، ويتراقص الأطفال لهددة الأمّهات، ويناجي العابد ربّه في جوف الليالي، والأسحار وكلّ الأوقات؟!...

وإن طالت أطرافك الطّبيعة؛ لتقعدّها عن الحركة، فلا جدوى من
سكون مياه الأنهار والبحار. صمتها سيدعو النّانة لتسكنها، والقنّامة
لتحضرها، فتعجزها النّوارس والبجعات المتباهيات؛ لتستوطنها
الطّحالب والقاذورات... وتأبأها حتّى الغربان النّاعبات!

كيف ستترافق عرائس الطّيور في العرائش وعلى تيجان الأشجار،
إذا ما قرّرت الأشجار لزوم الصّمت، والمكوث بدون حراك؟!...
ومن سينشر روائح الأزهار التي تنتشي بها الصّدور، وتتعشّ الجسم
بعبق الشّعور، إذا ما أعلنت الرّياح إضرابها عن الحركة والتزمت
الصّمت والسّكون؟!...

انتفض من جدتك أيّها الصّمت، وأخرج شاهراً تمرّدك... انفض عنك
غبار الكتم، وذرّ في الفضاء تراب البوح؛ كي تصهل كلّ الكلمات،
وتردّد صداها الفضاءات، قائلة هي ذي الحياة، في الحركة وليست
في السّكون والممات!..

قم وارضع الحركة؛ كي تعيد للحياة حبوها ثمّ جريها وبهاءها...
اكسر القيود التي كبّلتك، ومدّ ذراعيك لتحرك كلّ ساكن، واترك
الزّوايا، وامش في ميادين الحياة؛ لتسمع فيها أصوات ساكنيها،
ولتسبح كلّ الكائنات مسمعة صوتها، وشاكرة ربّها على عظيم
الهبّات...

جَنَّةُ الأمانة وجحيم الخيانة

هاج نحل خلايا دماغي، وانغرست إبر لسعاته في عظامي، وغاب
عن البال طلب البرء أو التداوي، حين ماجت الذكرى، وفتحت
جراحات من أحاطهم القلب بهالات الودّ والتّسامي، وأرشفهم رحيق
محبتّه، وإخلاصه أيّاما وليالي... وآثر صاحبه أجاج البعد، وفضّله
على عذب تجديد الدّاني، وعشق التّسهيّد على ذكرى الوداد، وما
غَزَلَ من جميل الأحلام؛ رغبة بإبقائها حيّة تروي العطش لأيّام
خوالٍ، ولتطفئ نيران ثورة لسعات مسبّات التّجافي... وخوفا من
الكفر بقيمة جوهرة يتزيّن، ويعتزّ بها بعض من الأنام، وتراهم بها
كثيري التّباهي إن ظلّت تزيّن تاج الإخلاص والتّفاني...

كتبوا عنه الكثير، وجاءوا بالحكم والأقاويل... وكلّ في جعبته ما
يسرّه أو ما يبكيه. منهم من اعتبره الكساء الذي يستره ويحميه،
والبيت الذي يأويه، والجوهرة التي تغنيه، وإن خسرها، لا يجديه كلُّ
تعويض، ولهيب مشاعر حبّه لها يكويه.

ومنهم من اعتبره الجواد الذي يمتطيه حتّى تحقيق ما يبغى ، ولا
يهمّه إن كان بعد ذلك قتيلًا يرديه؛ طالما نال منه كلّ ما يشتهيّه...
واحترار الناس في تقيّمه بين مؤمن بأفضاله وجميله، وكافر ببرّه
ووجوده... وباتوا حيارى بين الإثبات والنّكران، ونظموا في ذلك
الأشعار...

صاؤه صدقٌ ينسج خيوط الوداد في كلّ تعامل دون اجتهاد؛ لتغدو
المشاعر بعيدة عن بريق الزّيف، غارقة في بحر الهناء الذي يغدق
بلا تسويف. وتصبح الحياة جنّة محبّبها، وملهمة عاشقها، وفردوس
مقدّسها... لا شيء يعكّر صفو مريديها، ولا ضباب يحجب الرّؤيا
عن عيون ناظرها.

وهي الصّبابة للعيش الرّغيد برفقة تزيل الشّجن عن القلب الحزين؛
مخاطبة النّجوم... تطلب ضوءها؛ لتزيل الغمّة وتلقي بها في أحضان
كوكب بعيد يشحنها بنور الفرح، ويصقلها من جديد، ويعيدها إلى
الصّدر بهجة دائمة تتحدّى أيّ تهديد، وتهدهد إرهاق المتعب،
وتزوّد بأجمل الشّعور...

داله درع يُحتَمّى به من النّائبات، وصروف الدّهر، والمعضلات،
ويقي ما يهاجم الجسد من سوداويّة فكر قد ترهقه، أو سواد فعل من

أعداء قد ينهكه، حين يواسي ويؤنس الوحشة ويزيل الغمة، ويقف مدافعا في وجه من يبغى له الكربة.

وهي الدواء وقتما يحاول الداء نهش الجسم، وإبقائه خواء؛ إلّا من تباريح الألم وضعف الهمم.

ووقت قيظ الفكر، وتعب الجسد هو الدوحة التي يستظلّ بظلّها ... وخير زاد لجائع وملهوف يؤمّها.

ياؤه يمّ من الجود والخير عند شحّ الموارد، إنّهُ المنهل الذي ينهل منه ولا ينضب... هو يمّ الحبّ حينما تجفّ ينابيع القلب، ويعتريها التّصحّر، ويضطرّ الملهوف للجوء إليه؛ طالبا السّقي والإرواء، فلا يبخل بدلاء الإغداق والعطاء.

هو اليسر لكل عسر... إن ضاقت الدنيا وغلّقت أبوابا، فإنّه يفتح منها الكثير؛ ليدخل المحتاج، وهو يشعر بالتّيسير والترحيب، وفرح ينسى كلّ تكدير، ويظلّ الكرم الذي يلغي البخل ويجود بالغالي والنّفيس.

قافه قدوة حسنة لمن أراد أن يقتدي، ويحظى بالخير والبركة. هو لفعل الخير سباق، وللنجدة يهرول بأشتياق، وهو النّهر الدّفّاق لكلّ نخوة ، ولا يبغى سوى المودّة والوفاق بين النّاس، شاقّا دروب المحبّة والعطاء والإخلاص، فلا يسود الحقد والنّفاق.

إنَّه الصَّدِيق... الكنز الذي يختلف عن غيره من الكنوز، فهو لبيّض الأيّام وسودها، إذا ما حافظ على جودة جواهره؛ إضافة إلى بريقها. يحفظ رسمه داخل إطار، ويعلّق على جدار القلب؛ كي يحظى بكلّ دفقات الحبّ والحرص. وتقع الطّامة الكبرى حين يحاول يوما ما كسر هذا الإطار والخروج منه، مسبّبا للقلب نزيفا قد يستصعب الأطباء إيجاد العلاج له. وقد يرفض النازف تقبّل الدّواء، إن وُجد، لغضب يشعره بعظم البلاء وفداحة الأمر... فتتحوّل صاده إلى صحراء، تنفيه فيها المشاعر، وتتناثر مع حبّات الرّمْل التي ينسفها الهواء نسفا. وربما تلتفحها حرارة الشّمس، فتصلّى، وقد تحرق صاحبها حرقا...

وتغدو كذلك صدّا لما ينبعث في القلب من شعور؛ ليؤمن بالصدّيق من جديد، فيبقى رهن العدميّة، بعد أن كان طليقا ينشر خلجاته ورغباته بكلّ راحة وحرية.

وتصبح دال درع الحماية، دال دوّامة، يحوم فيها كالمخدول المهزوم الذي جلدته حبال الظلم، وتركته يندب سوء الحظّ، ويزرف شؤم الدّمع... وقد تصبح ديمة تمطر أسي ولوعة، كلّما غام الفكر، وطمع بمطر ينعش قحط الأحاسيس وجفافها.

وياؤه تَبَيَّتْ يأساً يطفئ نور الأمل الذي كان يصاحب كل خطوة يخطوها، حاملاً شعلة الصدق بيد المحبة الممدودة لنشر مطرّرات جميل العمل؛ ابتغاء نيل الخطوة ممّن ألهمه السير على الصراط المستقيم.

أما قافه فتمسي قلقاً يساور المخدول، ويجعله يخشى من يقترب منه؛ خوفاً من غدر جديد يتعبه، أو ضربة توجعه، أو قسوة تؤرّقه. ولربّما أمست قسوة تجعل النّقة بالآخرين محالة، وتقفز إلى مخيلته أفكار تفسّر كلّ تقرب مستقبليّ منه أنّه ذو غاية، وتراوده هواجس تحثّه على البقاء بعيداً عن عوالم اعتادها، وتدخّله في غابة يستصعب الخروج من بين ما تشابك من أغصانها...

وتظلّ النفس تواقّة لجنّة الصدق والرّزّانة. لكنّها، تخشى جحيم الخيانة التي لا يجديها نفعاً بعد كيّها، تأنيب النفس اللّوامة. لذا، يغلب توقّها الحرصُ وحسنُ الدّراية، فتفضّل البقاء على ذكرى من شاركتهم حديقة الودّ، ورموا ورودها في قبر الودّ، وإن عيل صبر تلك الذّكرى، وراحت توسوس للعقل بعظم البلوى، وخيانة الأمانة...

رؤيتنا ورؤيتهم

هي رؤية نرسم حسبها سبل حياتنا إيماناً بمضمونها؛ لأنها أفكار جنيناها من أزهار حقائق التجربة، وموسوعة المعرفة الحياتية... نطبّقها ونهديها لمن نرغب؛ كي يمتصوها عسلاً تحلو به أيّامهم، وتشفى صدورهم من كلّ ما يغيظهم، وتتسع مسامات رئاتهم؛ لتتنفّس هواء المحبّة والتّوفيق والراحّة...

تستمتع الأذواق بنكهة تلك الرّؤية، وتستسيغ طعمها فترة، لنرى أصحابها بعد حين يرحموننا برؤيتهم التي نريدنا أن نتذوق العسل الذي أسلناه سلسبيلاً، غسّلينا ينسينا طعم كلّ أنواع المذاقات الطّيبة... نقدّم العطاء على زمرّد الموائد بألوان ونكهات عديدة... يتذوّقها المتذوّقون، ويزيدون، حتّى يملأوا بطون حاجاتهم التي قرقرت، وصاحت طالبة النّجدة والإسعاف. بعد التّخمة، نجدهم يتجشّأون اللّعة والتّبجّج على ذلك العطاء؛ لأنّ من قدّمه ليس بأفضل منهم، ولا يصحّ أن يرفل بعباءات الخيرات تلك؛ كي يزمّل بها من أرّقهم برد الحاجة

للرث من نعيم المغدقين... ويرموننا بشظايا أمانيتهم التي يطلبون فيها
جذب موائدنا؛ كي نكون وإياهم سواسية، في بؤس الحال وسوء
المال.

تزيّن أفكارنا من نعزهم بالتيجان الزمردية، نضعها على رؤوسهم،
ونجلسهم أمانا على عرش النّزاهة الأبدية، فنلقاهم عقب ذلك يلفون
أفكارهم نحونا بأسمال غجريّة، ويقعدونا أمامهم على رصيف
الامتلاك والإذلال... فنكفر بملكيّة المشاعر الإنسانية التي نطمح أن
يرتقي بها الكثيرون، منتزّهين عن الأنانيّة التي باتت الموجّه
لتحرّكات العديد، فتجرّهم إلى ساحات غوغائيّة، بعد الطّمع فيهم
بالبقاء في باحات ورحاب الصّفاء والطّهر والحماية الرّحمانيّة...
وتضحى الأفكار السّامية سورة غضب يخطّ سطورهم، وربّما حضر
ساطوره للإجهاز على كلّ فكرة؛ لنلّا تجهض مسبّبة نزيفا قد يؤدّي
إلى تشويه ما سيولد معه من إخوة للأفكار في غير وجهة وطريق.

نصبّ الحبّ بكؤوس بلوريّة على رؤوس من نحبّ؛ ليرتشفوا الهناء،
ويتنوّقوا السّعادة، ويحلّقوا في فضاء الودّ قاطفين ما يحلو لهم من
ورد الحياة، مردّدين أهزوجة وجد الأيّام، نائمين على سرر مفروشة
بديباج الفرح، سكارى بخمر جميل الأفكار... يمسون ليالي كثيرة
في نشوة الحظّ والفوز بكلّ مرغوب، وفي إحدى الصّباحات نجد

أَكْفَهُمْ، بعد أن دغدغتهم أصابع الرَّاحَةِ، تصفع وجوهنا، وكأنَّها
كؤوس خشبيَّة ملأى بسمِّ الأشربة ؛ لنكرعها ونبقى نلهث وراءهم؛
بكاء على ترياق يفكِّ شيفرة مزيج الأذية والشرِّ. وقد يجعلنا هذا
الأمر سقاة شغفين بسكب حنظل المشروبات في كؤوس نجرعها من
أهاننا وأرادنا عبيدا، ناسيا ما زَيْنَاه به من لآلئ عاطفيَّة، وأعددناه له
من زرابيِّ حريَّة... .

ومع اختلاف المعايير، وتضارب الآراء، والصَّع لخدَّ العطاء،
والعضّ ليد الإغداق، يفضّل صاحب الرّؤية العسديَّة أن يبقّيها
حبيسة الفكر الذي أوجدها، كي لا تداس وصاحبها، إذا ما أطلق
سراحها، وأرسلت إلى ديار مضيّفين لا يعرفون قيمتها، ولا يدركون
عظمتها.

نُبُول اللّوتس

عندما يتراكم السّخّم والوخم، ويتحوّل ماء النّهر الذي تعيش فيه اللّوتس إلى مستنقع كثير اللّوث، فقد تبدأ جذورها بالاختناق، فتحاول التّأقلم مع البيئة الجديدة، وتنبت نوعاً من الجذور القادرة على تطهير الماء، وامتصاص ما يلزمها من ماء طهور للحفاظ على حلاوة الطّعم. تستخدم وسائل كثيرة ممّا منحتها إيّاها الطّبيعة، وممّا اكتسبتها؛ لتبقى على قيد الحياة، فتجد نفسها مع مرور الأيّام أنّها لم تعد الزّهرة المفرحة لذاتها، والتي تثبّت المسرّة للآخرين حين الاقتراب منها، ربّما شاكين، أو مسرورين، ويغادرونها فرحين جذلين...

وقد لا تستحمل مشقّة الجهد المبذول للتّأقلم، فيراودها الشّعور بوقف نشاطها الجديد، والتّخلي عن رغبة التّحدّي لإحساسها بعدميّة جدوى تواجدتها في المكان غير الملائم، وينتابها الاصفرار وتبدأ بالذّبول... وتعيش مرحلة الصّراع ما بين البقاء والفناء، وتواجه حالة نزع

غريبة. وبين انطفاء نور الحياة، ووهج بارقة الأمل بالبقاء، تتأرجح على أرجوحتيّ الحياة والموت.

يذكرها علو شوط التأرجح بالشمس التي تشرق عليها كلّ صباح، شاحنة إيّاها بطاقة النور والاستمرارية، فترشح حبيبات ندى أمل جديد يدعو للخضوع والرضا، رغم ارتفاع الزهرة التي ستفتّح وتفيض جمالا، وتعشق النور الآتي من الأعالي، مدفئا الجذور التي تغوص في نثانة الوحل، ومزودا إيّاها بقوة الصمود والتغلب على كلّ طحالب الماء الأسن التي أوقفت جريان النهر، ومنعت تدفق المناهل العذبة التي تحتاجها؛ كي تبقى الزهرة المحافظة على ما زودتها به القوى الإلهية... وفي نفس الوقت تحتاج لقوة وعزيمة؛ كي توقف تزايد الاصفرار، وتستعيد الاخضرار. فقد تؤدّي حرارة شمس الأمل والحياة الآنية إلى التسبّب باليبس، إذا ما تجاوزت حدّ التدفئة! ولا تدري كم ستستغرق رحلتها النضالية لاستعادة نضارتها بعد الذبول الذي داهمها.

أهلا بالزائر العزيز

أيها الزائر الذي يطول غيابه عنا؛ وكأنا بك المتيم بقول الشاعر: "زر
غبا تزد حبا"...

إنني أرى بعينك عيون الصغار النازفة مآقيها؛ بسبب سكين جشع
وبطش الكبار، الذي قطع حبال وصل سعادتهم، والقى بهم في
أحضان القسوة ...

أرى تلك العيون آملة أن تحلّ في ديار أصحابها ضيفا؛ كي يسعدوا،
ويغترفوا من خلايا جلابك ما يحلّون به أفواههم، التي تتدوّق مكرهة
حنظل الأيام العصبية ...!

وها أنت لدى نزولك في تلك الديار لا تبخل عليهم، وتأتي بلحظاتك
الهائلة، وبجعبتك الساكبة للخير الذي يشتهون ... ولحلوك ضيفا
كريما عليهم، يهلّلون ويمدحون... وهم لمرسلك شاكرون ...
وديمومتك بينهم يأملون؛ رغم عدم تمكّنك من المكوث طويلا حيث
يقيمون ...

أرى بعينك عيون الأطفال الآخر، الذين أنعم عليهم بارئهم بالعيش
الرّغيد ، و سطر الفرح حروفه في دروبهم، يلتقطونها أنى يسIRON ،
وكيف يتّجهون ...

ورغم فرحهم الذي هم عليه معتادون ، يقفون، وبلهفة الولهان،
قدومك ينتظرون ، وبك يرحّبون ... ففرحك يختلف عما اعتادوه من
فرح متجسّد بالنفود، ورهف العيش ... إنّه فرح حسيّ ترحبّ به
الروح قبل الجسد ...

فنعم الزّائر أنت ! وبك التّرحيب أنى حللت ! ونعم الإقامة إقامتك!
في ملاعب، وقصور، وبيوت، وخيام، وأسرّة الصّغار، دون تمييز
بين طبقاتهم، التي تخترقها بنفس الروح؛ متحدّيا وباسطا بساط الفرح
تحت أقدام الجميع دون منّ أو أذى؛ رغم كثرة الأيدي التي تسحب
أبسطة السّعادة من تحت أقدام كثيرة؛ لتفرش مكانها ألواح الصّبار
بأشواكها الأليمة ...

أرى بعينك عبادات المصلّين، التي تصدح بها المآذن والحناجر،
وتبهج النّاس كلمات من يعتلون المنابر، المزيّنة بأنوار الرّحمة، تلك
الكلمات ذات الرّائحة التي تفوح ناشرة أريج الأخوة والترابط

والبشاشة؛ ليغفّ الوجوه داعيا إيّاها إلى اللّحاق بالركب المهلّ،
فتغدو مهرولة لاحتضانك ،وشاكرة باعذك، بتكبيرات يهزّ صداها
أركان الفضاء الفسيح، باهتزاز يقوّي التماسك والتلاحم ولا يقويه...

أرى بعينك عباد الرّحمن الذين يطوّفون بالبيت العتيق، والتعب
والإرهاق للذكر غير معيق ... ودموع التّوبة والنّدم ترحّب بدموع
الفرح بالتّصفيق ... لضيف يذكّرهم بعفو
الله الواسع دون تضيق، لمن أخلص وتاب وبذل من أجله الغالي
والنفيس ...

وأرى فيك بهجة من اصطفّوا حول كنائسهم، منتظرين دقات
الأجراس معلنة ميلاد عام جديد، ومودّعة عاما مدثرا بآمال تحقّقت،
وسلّم مفاتيحها للغد الجديد؛ كي يكمل أصحابها فتح بوابات الخير
الذي نالوه، ويرغبون أن يبقوه، أو راثية تعاسة أجهضت على أحلام
كثيرين، وربّما أغرتهم دقات فرحها ببزوغ فجر أكثر إشراقا، وأيسر
طرقا؛ لتحقيق ما إليه يطمحون...

فيا لك من ضيف تحمل على أجنحتك بشائر الخي؛ لتضيء بها
فوانيس الأمل، التي ينتظرها مريدوك!.

أرى بعينك العدل الذي تنشره عباآت الغبطة الحريّة على الجميع
بلا تمييز ، وكأنّك قاضي السرور والبهجة الذي يفرض على كلّ
القلوب الامتثال للأمر؛ رغبة في إزالة همّ كلّ مهموم ، وتفريج كربة
المكروب ، الذي يصدر الأوامر لقلبه بعدم دفع دم السعادة والفرح
الطروب ...

ويا له من عدل حين يتوّج بوقت محدّد؛ تبغي فيه السيطرة على جميع
القلوب، وتوحّد وقت بثّ المشاعر الاحتفاليّة؛ جاعلا أصحابها سواسية
رغم ما هم فيه مختلفون!.

فمرحبا بك أيّها العيد الذي يحلّ ضيفا على كثير من الرّبوع؛ مشعلا
مشاعل البهجة ، وجاعلا شرايين القلوب تتدفّق بسائل المحبّة المعطر
بشذا الفرح؛ لينشر بين الورى مودّة وألفة... وشكرا لمن أرسلك
زائرا، يحفّن من جعبته حفنات الخير، والعدل، والوحدة والسرور،
ونائرا إيّاها في وجوه محبّيه بكلّ حبور...

صديقي

كلّما داهمتني دياجير الظّلمة، وبدأت أخبط خبط عشواء، كنت النّور الذي يضيئها ويبدّل اهتزاز الخوف بقشعريرة السّكينة التي تبسط أهدابها على قلبي، وتحمل رجليّ على المسير، وتفتح لي بوّابة الطّمانينة على مصراعها؛ داعيا إيّاي العبور منها، وأحراز الهدف.

وإذا ما أخطأت في إحراز الهدف، فأنت الدّليل الذي يخطّ لي الخطوط مستقيمة، ويمسك بتلابيبي؛ خوفا عليّ من التّيّه أو التّعثر .
ورغم الإرشاد، فقد تصاب العينان بالعشا، فلا تريان استقامة الدّرب فيترنّح الجسد. وخوفا عليه من السّقوط، تأتي مقومّا، وداعما إيّاه؛ ليستقيم كما الخطوط؛ كي لا يلتهمني الخطأ ويلدني خطيئة!.

وإن أبّت النّفس الأمانة بالسّوء أن يسير الجسد بعد تقويمه حسب استقامة الخطوط، فإنّك تسلّط عليها النّفس اللّوامة كي تقهرها، وتجهز

على وليدها، وتعيد لجسدي صحّة خطواته وثباتها، وتطهّره من
برائث العناد والجهل .

وإذا عاود الشيطان الوسوسة، وتعرّثت الخطوات، وسيطرت عليها
بعض الهفوات، وتورّم الجسد من أدران الإثم والخطيئة، وأحسّت
النفس أنها لم تعد، كما كانت، بريئة، وحاولت التطهّر من وزر
الذنوب التي تراها دنيئة؛ لتستردّ الأمن والأمان، وتحیی حياة هنيئة،
فلا تجد سوى عصاك تهشّ بها على شجرة الخطيئة؛ لتثمر قطوف
الفضيلة، وتتلف فجّ الرذيلة، وتوسّع بساتين الخير، وتعيد دروبها
القوية.

وإن جاءت الأقدار بما لا تشتهيهِ الأنفس، فسخطت على صعوبة
الحاضر، ورثت الحظّ العاثر، ومقتت الواقع، وصرخت بصوت
هادر، وتمتعت محتجّة بحكم جائر، قد يؤدّي إلى سخط الرحمن،
وجعل ما تشكو منه نصيبها الدائم، والواقع القائم... يأت وميضك؛
ليذكر بأهميّة الرضا، والصبر على ما حكم الله وقضى، وربّما كان
الخير بين طيّات ما مضى، رغم هول ما كنّا نرى من سياط القهر

والجوى... يخدم لهيب نيران الشكوى والغضب، ويشعل شموع
الشكر ملجمة السنة التذمر والعتب.

وإن غاب الجميع، ونسيني الزمان في زوايا الوحدة، يفتتت صقيعها
عظام الثبات، ويهتف زمهريرها في الرأس موجعا إيّاه، وجاعلا
حيوية الفكر في سبات، ومُبقية مترنحا دون متكا أو نصير أو معين،
ويعجّ بالزفّرات والأنات، فإنك تحضر لوجع تلك الآهات، وسخط
الكلمات؛ لتكون الصدر اللين الواسع الذي يسند، ويعيد للجسد الخائر
القوى، حيويته، وللنفس المشبعة رهقا وقهرا طمأنينتها، ولرغبة الحياة
استمراريتها... وتكون خير منقذ، وتعيد ليدي منسأتها...

فيا أيها الصديق ابقَ في حياضي خائضا؛ كي تدثر خوضي بطهر
الثياب، وتحميني من لوث المياه، وأنا لغور أعماقها جاهلة، وعن
لوثتها غافلة... ولطهرها، ولنهر مياه الخير، كن لي اليد الدافعة.
وابقَ سياجا يسورني بالنور والمحبة والعطاء، ويقيني من أشواك
المعرضين والبلهاء؛ لأحرص على إبقاء زهرة الروح التي أنبتها
الخالق في أفضل وعاء ...

ولا يستطيع فعل ذلك سواك أيّها الصديق المسمّى ... الإيمان .

حَفَنَاتٌ وَأَكْوَامٌ

تتراقص فراشات الفرح حول قناديل مشاعرنا، فتحملنا على أجنحتها وتطير بنا عالياً؛ لنتحرّر من قوّة جذب الأديم الذي يحاول جاهدا إرجاعنا، ونقع في سديم السعادة الذي يشعّرنّا بالتحرّر من كلّ قيود الجسد والفكر، ونحيا لحظات غطسٍ في نهر التطهير من كلّ ما يعكّر صفو الشّاردات والواردات، ونغرس على ضفّتيه شجيرات نتمنّى بقاءها مخضرةً بأوراق البهجة، وتيسير كلّ عسير، ومثمرةً بثمار الطّمانينة، وطرد كلّ تكدير.

تمطرنا مزنة جميل الأحاسيس برشّات متواصلة تبلّلنا بفرح يدفئ القلوب والنفوس، وينسينا برد وصقيع الأحزان المتقلّة للكواهل، وتتوّخ بحملها الظّهور. فتنهض القامات مجدّدة نشاطها ومشرّبة نحو مطر الفرح؛ طمعا بخيراته، ووافر عطائه...

يرطبّ ندى السعادة المشاعر بطيب شذاه، فتهيم في روض السّرور عازفة على أوتار الرّاحة التي جعلتها النّعمة تغادر سجن الجسد؛

لتحمّل ذاك العزف نسيم الجذل؛ كي ينشره في أجواء من يرحّبون به،
ويحرصون على حفظه في أسطوانات أفئدتهم.

وتدغدغ أنامل السرور الفكر، فتلّين بعض ما تشنّج من أمور، وعجز
عن إيجاد المخرج لها، وينشر حرير مخيلته بساطا يفترشه مرتاحا،
ويزرّكشه بجميل ما يسيل من عصارات ذاك الفكر .

وتبقى أجنحة فراشات الفرح مرفرفة حتّى تتفاجأ بتحوّل المزنّة
المنعشة إلى غيمة سوداء ترشق الهامات بزخّات من الهموم، فتنبّع
حانية في وحل التّعاسة، وما تأتي به من شرور، ويخبو نور الحياة
الذي سطع، وتفتّر حرارة كلّ ما أدفأ.

ويشعرنا الحزن بثقل يلصقنا بالأرض، وينسينا كلّ نجم مضىء في
السّماء؛ لأنّ العيون تتسمّر حدقاتها في الطّين الذي يمسك بالقدمين،
فتتحوّل مخيلة الأفكار التي نعمت بجميل الصّور، ومبهجات النّظر
إلى لوحة تمتصّ كلّ ألوان الصّور، وتزداد قتامة تثقل على الفكر،
فتبدأ مطارق ما يزعج ويحزن بخبط الرّؤوس، بعد أن كانت لا تجرؤ
على رفع رأسها، وتقفز لتجلد الجسد والنّفس، فلا تستطيع المقاومة
بسبب نور الفرح. وقد تثقل السّوداويّة على الفكر، فيبدأ ببناء أكوام
من حبّات صغيرة طرقت بابه...ولا يبقى دور للخيال الجميل الذي

يحلّق في بياض الأفق، بل قد يغطس الفكر عميقاً؛ لانتشال ما عنّ
على الخاطر، وكدّر الصّقو، ودفن في العقل الباطن...
والعجب، كلّ العجب من نسيان المشاعر الطيّبة، حين تداهمنا أكوام
ما يحزن، وإن لمعت بعض خيوط الإضاءة لتخفيف حدّة القتامة، فإنّنا
نراها سلاسل قهر تزيد الجرح إيلاّما، ويزداد لهيب أتون الغضب
المشعل بحطب التبرّم، ويتألّم الجسد، وتتصلي الأحاسيس، فندخل في
خندق يأوينا، حتّى نصل نهايته منهكين... ولدى خروجنا منه لا يهتمّنا
الضوء الذي بزغ نوره، وبدّد ظلمة الأعماق، فنقعد عاجزين
مستسلمين، لا نريد رؤية الشّمس وشروقها؛ لأنّنا نغطّيها بغيوم
أفكارنا، فنندب حظّنا ومصائرنا، ونزيد من أكوام أحزاننا دافنين كلّ
أفراحنا...

جمرة وثلج

همس لذات صاحبه معددا ميزاتة: أنا من أوقفك على أرصفة
الإحجام، قبل الجلوس على أرائك الإقدام، وأدعوك لدوائر التّكذيب
قبل المكوث في مربعات التصديق...

أبذر في سهول أفكارك، مبكرا الموسم؛ كي تظلّ البذور قيد النّبش
قبل التّغلغل والتّشبث بالتّربة... قد يروّك الأمر فتغطيها؛ لتنمو
وتورق، وأنت مطمئنّ النفس، ولا تقطف الثّمار إن أثمرت إلّا إذا
تأكّدت من جودتها، وطيب مذاقها.

أدعوك دوما للجلوس على كرسي نزع النّقة من كلّ المحيطين بك،
فلا تسمع لمن كان أقلّ منك مالا بالاقتراب ممّا تملك؛ خوفا من أن
تسوّل له نفسه اشتها ما عندك، ولا تأذن لمن أحببته وأدخلته
رياضك بأن ينعم بغدق وبهاء تلك الرّياض، فتظلّ عيناك له مراقبة،
ونفسك منه مرتابة، وأفكارك حائرة ما بين إيوائه وإقصائه.

أحصد بمنجلي سنابل حقول أحلامك، وأبقي لك زيوانها؛ لتذوق مرّ
الطّعم، وتبتعد عن نعيم الرّؤى... فتشكو وتستنجد حتّى تكلّ؛ لتحظى
بفتوى لحلمك ورؤياك، وتمشي صوب دروب التحقيق...
أجرّك لفرن التّخبّطات، وأنت ممسك بيد الاستقرار، فيحرقك اللّهب،
ويحرمك من برد وسلام الثّبات...

إن فرحت لبياض الأمور، لا أطيل عليك لحظات الهناءة، فأباغتك
وأوقفك أمام سود السّتائر التي تلتحقك، وتمنع اختراق خيوط البياض
لسوادها، فتقع في غياهب جبّ أمرك تنتظر بعض السيّارة؛ ليزيحو
عنك تلك السّتائر، وترى بياض الأفق الذي يعيدك للتّحليق، وبياض
غيّات بعض أمانيّك.

أجلس على صدرك أخطبوطا تلتقط أذري كلّ صيد تنوي التّمتع به،
وأريك إيّاه جيفة، بعدما رأيته تحفة؛ لتعافه نفسك، وتشمئزّ منه
روحك...

أحيانا، قد تكره التّلفظ باسمي أو تخيل حرفي؛ لأنّهما يشكّلان بالنّسبة
لك مصيدة تغريك بدسم أجبائها، لتجد نفسك داخلها يعتصرك ضغط
أجزائها، فتنتبه لمساوئي.

وفيما الشكّ غائص في آسن المياه، وتاركا عذبتها مغذيا طحالب ذاك الماء، ونتاجة رائحته، وإذ باليقين يأتي سابحا في أجاج الذات؛ ليهدي من روعها، ومتحديا إياها:

أيها الخائض بين ثنايا سليم الأمور لإفسادها، احفظْ عليك مكرك، ودع ما توسوس به ذاتك؛ لأنّ هناك من هو أقوى منك، مَنْ يقوم سيف الباطل الذي تتغمّده.

إنّي من ينتصر عليك دائما... عندما أنهض تغطّ أنت في سبات عميق، ولن يفتن أحد لإيقاظك، فلا رغبة لإخراج حيّة من وكرها؛ لتفتت سمومها أنى توجّهت...

أنا من يأمر بقطف أجود ثمار الإنجاز، ووضعها في سلّات الفرح؛ كي ينعم بها صاحبها ويسرّ... وإذا ما فسدت ثمرة من تلك الثمار، أهبّ محذرا وصائحا لإبعادها، ولا أزرع في قلب البستانيّ الخوف من فساد الجنى.

أنا من يعلّق ثريّات النور؛ كي تسطع بأضوائها وتسرّ الناظرين في طرق التخطيط، وإنجاز ما ينفع ويسير بالحياة قدما، ويعلي من شأن مَنْ كان تحت القهر يقبع.

أُري الغراسَ عاليّةً، والثّمارَ ناضجةً لمن أمسك بيده الفسيلة والمعول،
وهمّ بالغرس، وبالأمل والصّبر تجملّ، مسابقا الطّيور في بكورها،
والشمس في شروقها.

أجعل الكريم يغدق بعطائه، والأمين يزيد من وفائه، والوجه تفيض
بشرا، والقلوب تطفح حبّا، والنفس تعمّر إيماناً وصدقاً.
أبني صروح الثّقة، وأعلي لها البنيان، وأنشر عطر الأمان في كلّ
مكان؛ ليعيش الإنسان هانئاً متحدّياً صعاب الزّمان.

أجلس صاحبي على أرائك النّعيم؛ كي ينعم بهدأة البال ويستكين...
ولا أبقيه تحت سياط التّردّد، ووخز الإبر ما بين التّصديق
والتّكذيب... وأجعل المجافي منتظراً وصال الحبيب، والفقير حالماً
برغد العيش لا ذلّه، والعاصي طامعاً برضا ربّ العالمين لا
سخطه... فكيف لا، وأنا اليقين؟!..

كَلِّمْ ... وَكَلِّمْ

أَيَّتْهَا الكلمة التي غدت كَلِّمًا ينزف الآهات والأَنَات من خناجر الدَّهر،
وويلات الزَّمان، صابًا نزفه في مرزاب يذلف في بئر حزن، يُقَفِّل
عليه بقفل الحرص؛ كي يظلَّ رهينة المشاعر... يفتحها المكَلِّم، كَلِّمًا
عنَّ وجعُ الكَلِّم على خاطر؛ لينتشل الهموم دلاءً، ويستحمَّ بمائها
ترطيبًا للجسد الذي تعمَّد حزنًا، وأقسم يمين الولاء لعبوديَّة أفسى
المشاعر...

كفى بك كَلِّمًا دائم التَّنكير بجمرة الألم، وسعال الأمل، وحشيرة
الفرح، وزفرة الأسى...

وحريَّ بك أن تكوني كَلِّمًا رقرقا كجدولٍ يبعث في النَّفس
السَّرور، ويظهرها من طمي الأحزان، وعكر الشَّجون... وبسمةٍ
ترتسم على الشَّفاة المتعطَّشة لرذاذ الفرح، وندى الأمل ... وشدو

طائر دعته أغصانُ الربيعِ نشوانَ بتخلّصه من صقيعِ وزمهريرِ
الشتاءِ.

أريدك فيضَ حنانٍ ينعش عطشَ القلوب التي أفعدّها الخريف طويلاً
بين أضلاع الجفاف والتشقق، منتظرة غيث السماء...

وحقلَ فرح تُبذر فيه بذور الأمانيّ ، وتسقى بماء التّفاؤل لتُقطف
شتلات سعادة ... وجبّ كَرَمٍ يجود بدلاء المحبّة على القلوب؛
لتفويض حبّا...

عقائصُ ذكري

من بين طيَّات السَّنين قفزت صور وقعدت في مرسوم الذِّكريات؛
نافضة عنها ما علق من غبار قديم السَّقر... فأجلستني قبالتها أستعيد
ما جرجرته عجالات الأيَّام من عمري، وأحصي من نجوم السَّنين ما
قد أفل...

أقبع هناك، فنتكِّوم أفكار أمامي، تحمق لمراها العينان، وتدهش
لزفير الآه وفحيح الأنين الأذنان. فهما يعجنان بماء تأوَّهاتهما قمح
الأفكار وزهر العواطف، نازعين منهما الخصب وماء الحياة.
وتستمرَّ عدسات الذِّكري بعرض صورها غير مبالية، تطوي
الصِّفحات طيًّا؛ لتقعدي على تلة الحياة؛ ناظرة وعورة ما تبقى
وتدعوني لأعدَّ لذلك العدة، وأشدَّ حزام الصَّبْر لتحمل وتفادي عثرات
الطَّرِيق وما سألقى...

ها قد جفاني الفرح وغادرني إلى ديار بعيدة، ولا أجد لردِّه سبيلا
... وبات الخلَّان في منأى عني، ونسيني من إليه أطمئن وأشكو

ويلات حرمانى من طيب ما يهفو له قلبى، وتتلوى له الأحشاء شوقا
وحيننا... وبات الجسد يشكو ثقل الحمل الذي ناخ تحت أرزائه
طويلا...

فيا قلب، قد أتعبنى خفقك احتجاجا، ولا أجد لتهدئتك تربيئة كفّ، أو
دواء يشفي الغليل.

ويا وجه، قد أرهقتني بسمة التحدّي، فلم أعد أقدر على تلقّي صفة
حزن الخدّ الأيمن بضحكة الخدّ الأيسر، وبث المسرات لمن جاء
يشكو، وعلى رصيف الهموم يحبو.

ويا فرح ذكرى يوم مولدي تلاشت خيوطك حين غزتها صفرة
خريف الغضب واليأس، حيث بتّ تشعرنى بتساقط أوراق شجرة
أحلامي، وضالة واضمحلال آمالي... أنفت عليك من دخان التذمّر،
وأحجبك بضباب الفكر، وأعاند جميل شعور يقاوم حشرة اليأس
ليبتّ في داخلي سنا لهفة يغذّي جذوع شجرة العمر لتورق بأوراق
الرّضا، ويثبت الجذور في ترب التّفاؤل وحثّ الخطى...

وعلى حين غفلة، تصفعني المشاعر وتلفّ أشرطة الذكرى؛ قاذفة
إياها في تابوت النسيان الأبديّ؛ لئلا تفسد عليها جمال الحياة
واستغلال كلّ لحظة؛ هاتفة وداعية روعي كي تغني لزراع الربيع؛
لتحظى بحصاد قمح الصّيف . فحطّت على كتفي فراشات الأمل

طاردة دبابير الهمّ والجوى، وداعية ورود الفكر لتزهر وتتمايل تيهها
في روض الهناء، لا زاحفة في دروب شوك وجفاف الحياة ...